جهاد شعب الجزائر (1)

خير الدين بربروس



دار النفائس

خير الدين بربروس

الطبعة الأولى

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

© دار النفائس
بيروت : ص ب ٦٣٤٧ ، هاتف ٢٥٨٧٢٨ - ٣٠١٤٤٧ ، برقياً : دانفايسكو

خير الدين بربروس

(والجهاد في البحر)

١٤٧٠ - ١٥٤٧م

تأليف

بسام العسلي

دار النفائس

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

الى أرواح قوافل المجاهدين الشهداء،
الذين تركوا للدنيا تراثا مجيداً لا يمحوه الزمان،
وصنعوا لأجيال العرب المسلمين مجداً خالداً على مرّ الأيام.

بسام

مقدمة الناشر

كنا فتياناً . . وكانت الأخبار شحيحة في المشرق العربي ، ومع ذلك فقد كنا نلاحق أخبار الجزائر «بلد المليون شهيد» بلهفة وشوق . . كنا نعيش مع شعب الجزائر آلامه وأحلامه وكلما سمعنا خبراً جديداً عن تضحياته كلما ازداد حبنا له ،وتقديرنا لمواقفه ، وتلهفنا لمعرفة المزيد عن الشعب الشقيق المجاهد ، والبلد العربي المسلم الأصيل .

لهذا كانت سلسلة كتب «**جهاد شعب الجزائر**» هي الأولى في مجموعة الكتب التي نأمل بأن نصدرها تباعاً في السنوات الأولى من القرن الخامس عشر للهجرة ، وبأسماء تلك الشعوب حسب التسميات السائدة في العصر الحاضر ورسوم الحدود السياسية المصطنعة ، التي نراها على الخرائط المتداولة في هذه الأيام .

والحوافز لنشر هذه الكتب كثيرة ، منها قلة الكتب التي تتناول جهاد الشعوب العربية والمسلمة في العصور المتأخرة ، وانصباب التركيز كله على عهد الفتوحات الاسلامية الأولى . ربما لكثرة الايام المشرقة في عهد صدر الإسلام وكثرة الأيام الحالكة في العصور التي تلته .

ومع أن هذا الكلام حق، فإن في تاريخنا كله صفحات مشرقة لا تقل نصوعاً وبياضاً عن الصفحات التي كتبها صحابة رسول الله (ﷺ) بدمائهم الطاهرة. ويجب أن لا تضيع هذه الصفحات بين ركام مشين من التفرقة والتناحر السياسي والمذهبي».

إن دراسة تاريخ أمتنا يظهر لنا بوضوح شراسة الأعداء وتصميمهم على استئصالنا من الوجود، وتنوع أساليبهم للوصول إلى غاياتهم الدنيئة. كذلك يبين لنا بوضوح أيضاً أنه لا يصلح آخر أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. فما ارتفعت راية الجهاد مرة، وتوحد المسلمون تحت لوائها، منذ عهد محمد (ﷺ) إلا وكان النصر حليفهم. وما استكانوا وعطلوا الجهاد، وشُغلوا بأنفسهم عن أعدائهم إلا تسرب الوهن الى صفوفهم وظهر عليهم أعداؤهم فأذاقوهم مرارة الذل والاحتلال والاستعباد...

ليس لي أن أطيل في الموضوع، فذلك ما سيتولاه مؤلف هذه السلسلة الكاتب العسكري الكبير والمؤرخ المسلم «بسام العسلي» الذي عرفناه في سلسلة «مشاهير قادة الاسلام» و «الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية» وغيرها من الكتب والمقالات..

نسأل الله أن يوفقنا في عملنا ويجعله خالصاً لوجهه الكريم فهو نعم المولى ونعم النصير.

احمد راتب عرموش

المقدمة

ويبدأ القرن الخامس عشر للهجرة . .ويقف العرب المسلمون مع بداية هذا القرن وهم في حالة من الذهول لما نزل بهم، لقد باتوا أغراباً في ديارهم، مضطهدين في أوطانهم ممزقين في عالمهم. ويقف المسلمون في كافة أرجاء الدنيا يشاطرون العالم العربي الاسلامي نوائبه وأحزانه، ويفتقدون فيه دوره الريادي، ويأسفون لضياع دوره القيادي. لقد ضاع العرب وأضاعوا معهم العالم الاسلامي عندما تخلوا عن أصالتهم وهجروا قواعدهم الصلبة التي بقيت باستمرار حصنهم الحصين ودرعهم المتين ضد كل ما نزل بهم من نوائب، وضد كل ما جابهم من محن وكوارث، فأصبحوا تابعين بعد أن كانوا متبوعين، وباتوا مقلدين بعد أن كانوا سادة مبدعين، ليس ذلك فحسب، بل باتت أمجادهم ذاتها وراء ستار من التزوير والتلفيق. فسرقت منهم جهودهم وتضحياتهم، وضاعت هدراً دماؤهم وأرواح شهدائهم، وتحولت إلى غنائم لحساب أعدائهم، ووصل الأمر إلى تنكر العالم العربي حتى لأصالته الاسمية. فأصبحت أنظمته تحمل أسماء غريبة لا علاقة لها بأصالة العرب المسلمين ولا حتى بمستقبلهم. فهل انتهى العالم العربي-

الاسلامي ولم يبق له صلة بماضيه ولا علاقة له بمستقبله وأصبح مجرد مزق في مهب الريح؟

يقيناً لا ؛ والشواهد كلها تؤكد أن الأمة العربية الإسلامية على عتبة عهد جديد يحمل كل التطلعات نحو مستقبل أفضل. وليست عملية القمع الشاملة للإنسان العربي أكثر من تعبير عن الخوف من انطلاقة هذا الإنسان نحو أفق المستقبل.

غريب أمر هذه الأمة التي لم يتعبها الجهاد، ولم تستنزف الحروب طاقتها وقدراتها على الرغم من كل ما نزل بها وما أصابها من المحن والخطوب.

لقد بدأ القرن الخامس عشر للهجرة. وأمة العرب المسلمين في حرب دائمة لعل التاريخ لم يشهد لها مثيلاً ولم يعرف لها شبيهاً او نظيراً. ولقد كانت هذه الحرب متنوعة في ظواهرها مختلفة في أشكالها، متباينة في أساليبها ذات هدف واحد في مجموعها (وهو القضاء على أمة العرب المسلمين). وما يعني البحث هنا نوع واحد من الحروب (ألا وهو الحروب الثوروية الإسلامية). فهل هنالك (حروب) و (ثوروية) و(اسلامية)؟... القضية هي قضية تعاريف قبل كل شيء. فمفهوم (الحرب) يشمل على ما هو معروف كل أشكال (الصراع المسلح) ويقابله مفهوم (السلام) الذي يعني استخدام كل وسائط الصراع الأخرى - ما عدا أو باستثناء وسائل الإكراه القسري بقوة السلاح- ويلتقي المفهومان في العقيدة الإسلامية (الجهاد الأصغر) ويعني الحرب، و(الجهاد الأكبر) ويعني جهاد النفس، بالمضمون الضيق واستخدام كل أنواع الصراع السلمي بالمضمون الواسع. ويلتقي المفهومان (الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر) عند نقطة (هدف الجهاد) في

السلم والحرب وهو رفع راية العرب المسلمين، كل المسلمين في كل بقاع الدنيا (والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين).

وضمن الإطار الشامل لمفهوم الحرب، يمكن التمييز في الواقع بين أنواع مختلفة من الحروب سواء بحسب طبيعتها: كالحروب المحدودة والحروب الشاملة، والحروب الأهلية الداخلية والحروب الخارجية، والحروب النظامية والحروب الثوروية الخ... أو بحسب طبيعة الأسلحة المستخدمة فيها: مثل الحروب بالأسلحة التقليدية والحروب بأسلحة التدمير الشامل (الغازات، والبكتريولوجية، والذرية) وكذلك من حيث علاقاتها بالقوى (كالحروب الاستعمارية والحروب الثوروية- التحريرية). وقد تحمل الحروب اسماء للصفة الغالبة على طرائقها أو الأسلحة المستخدمة فيها بصورة أساسية: مثل حرب الخنادق وحرب الانفاق والحرب البحرية وحرب الغواصات والحرب الالكترونية وحرب الاصوات، الخ...

غير أنه لا بد من الإشارة الى أن عملية الفرز غير دقيقة تماماً. فكل حرب قد تشمل أنواعاً مختلفة من الطرائق وأشكالاً متباينة من الأساليب التي يطلق عليها تجاوزاً اسم الحروب وهي ليست أكثر من صفة من صفاتها وظاهرة في جملة ظواهرها - وأفضل نموذج لذلك الحرب العالمية الثانية التي شملت معظم انواع الحروب.

ويتضح مما سبق ان استخدام اصطلاح (الحروب الثوروية) هو أمر ممكن بدون لبس أو غموض. ويبقى بعد ذلك السؤال: هل بالإمكان إعطاء هذه الحروب الصفة الإسلامية؟. وهل هناك (حروب ثوروية إسلامية)؟

تتطلب الإجابة على هذا السؤال العودة قليلاً الى الوراء، عندما انطلقت جحافل المجاهدين في سبيل الله من الجزيرة العربية لنشر الدعوة الإسلامية والتعريف بها. فخاضت حروبها ومعاركها وأيامها باساليب وطرائق تلاحمت فيها العقيدة القتالية الإسلامية بالعقيدة الدينية لبناء المجتمع الإسلامي، مجتمع السلم والحرب، على أسس مغايرة لكل ما عرفه العالم. وقد أذهلت هذه الظاهرة قادة جيوش العالم في عصر ظهور الإسلام. وكان من أكثر ما يثير في تلك الظاهرة اندماج طرائق الحرب التقليدية بطرائق الحرب الثورية ـ وفق المفهوم الحديث ـ. ولقد كان التكامل في العقيدة القتالية الإسلامية في طرائقها وأساليبها أمراً غريباً لم يتمكن من فهم أبعاده ومضامينه أعداء العرب المسلمين. وكان في ذلك بعض عدة المسلمين في حروبهم ضد اعدائهم لنشر رسالتهم فوق أرجاء الدنيا خلال فترة لا تحسب من عمر الزمن بسبب قصرها وبالقياس مع ما تم تحقيقه خلالها من فتوحات ومنجزات أحنى التاريخ هامته إجلالاً وإكباراً لها.

وتبعَ المد العظيم تحولٌ بطيء وتدريجي. يمكن التعبير عنه بالهجوم المضاد الشامل الذي بدأ بالأندلس الاسلامية، وانتهى بحملات الافرنج الصليبيين على المشرق الإسلامي أيام الحروب الصليبية في بلاد الشام. ورافق هذا التحول ظهور عوامل جديدة ألقت بكل ثقلها على طرائق الصراع وأساليبه في كل أنحاء العالم العربي- الإسلامي، في مشرقه ومغربه. وكان من أبرز هذه العوامل الجديدة انتزاع السيادة البحرية من قبضة المسلمين. ولم يعد البحر الأبيض المتوسط (بحراً شامياً) أو (بحراً إسلامياً) على نحو ما كان عليه طوال أكثر من سبعة قرون. وكان من أبرز هذه العوامل

الجديدة أيضاً، انتقال الافرنج (الصليبيين) من مواقع الدفاع الى مواقع الهجوم. ورافق هذا التحول تمزق رهيب في العالم الإسلامي، فباتت كل بقعة من بقاع العالم الإسلامي مشغولة بأمور نفسها عن كل ما سواها. وضعف تنسيق التعاون فيما بين هذه البقاع (الأقاليم والأقطار). فكان في ذلك الانهيار المرعب الذي لا زالت جذوره تضرب في أعماق وجود العالم العربي الإسلامي.

ونجح الافرنج الصليبيون في إخراج العرب المسلمين من الأندلس.

وانطلقت جحافل الأفرنج الصليبيين لضرب قواعد المسلمين ذاتها والاستيلاء عليها في المغرب الإسلامي. وتبع ذلك تحول على جبهات الصراع بسقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك العثمانيين وظهور الامبراطورية العثمانية واضطلاعها بواجب (الجهاد في سبيل الله) في البر والبحر.

واضطلعت جماهير الشعب العربي- الإسلامي بدورها في هذا الجهاد.

وتبع ذلك نوع من الركود على جبهات الصراع بفضل انصراف شعوب الغرب في معظم الأحيان الى الحروب فيما بينها حتى جاءت الهجمة التالية في إطار (الاستعمار).

وخلال هذه المرحلة وجد المسلمون أنفسهم أمام مواقف مغايرة، فخاضوا غمار الحرب الشاملة على شكل حرب دفاعية غير متكاملة، في البر والبحر، ضمن ظروف غير متكافئة لا في حجم القوى والوسائط ولا في طبيعة الصراع وطرائقه. فكانت هذه الحروب الدفاعية هي (الحروب الثوروية الإسلامية).

ويمكن في الواقع تمييز هذه الحروب بمجموعة من الخصائص التي تمايز بينها وبين ما يطلق عليه اسم (الحروب التحريرية). ولعل من أبرز هذه الخصائص:

١- أنها تنطلق من فكرة الجهاد في سبيل الله.

٢- أنها تنطلق من المسجد ومن المدرسة الإسلامية (الفكرية والعقائدية).

٣- أنها تخوض الحروب لا في حالة يائسة وإنما في إطار من التصميم العنيد لانتزاع النصر في النهاية، مع كل تجاوز لظروف الحاضر وعقباته.

٤- أنها تحمل طرائق الحروب الثوروية الإسلامية وشعاراتها وأهدافها.

٥- أنها تعمل من أجل الإنسان العربي المسلم وعزته وكرامته، ومن هنا فهي لا تقبل في معظم الاحيان إحلال استعمار محل استعمار، او التعاون مع عدو ضد عدو، بقدر اعتمادها في البداية والنهاية على القدرة الذاتية للشعب العربي المسلم.

وتلتقي (الحروب الثوروية الإسلامية) مع (الحروب التحريرية) في بعض أهداف التحرير، وتختلف عنها في عدم استعدادها للتبعية بعد التحرير. وهذا هو بدقة سبب ما تتعرض له جماهير الشعب العربي المسلم من ضغوط مستمرة ومحاولات متواصلة لترويضها واخضاعها. ان هدف (الحروب الثوروية الإسلامية) هو المحافظة على الوجود الإسلامي وحمايته باعتباره المصدر الحقيقي للأصالة الثوروية.

وضمن هذا الإطار يمكن فهم الحروب الثوروية في البحر

(والتي يمثل نموذجها الأعلى خير الدين بربروس). وضمن هذا الإطار يمكن فهم (الحروب الثوروية في البر) والتي تمثلها مجموعة من الثورات، أبرزها ثورة (عبد القادر الجزائري) وثورة (المقرانسي والحداد) في الجزائر ومروراً بثورة (المهدي) في السودان، و(الثورة الوهابية) في العربية السعودية. والثورات المتتالية في بلاد الشام ومصر وأبرزها ثورة (عز الدين القسام) و(الثورة السورية الكبرى) ونهاية (بالثورة الإسلامية الإيرانية) التي لن تكون يقيناً آخر الثورات الإسلامية.

المثير في الأمر هو ملاحظة تلك الثورات الفكرية الإسلامية التي ارتبطت باستمرار مع الحروب الثوروية، وانطلقت من (المسجد ومن المدرسة الإسلامية) والتي يمثلها أفضل تمثيل (عبد الحميد بن باديس) في الجزائر. فهل من الغرابة أن يصبح المسجد وتصبح المدرسة الإسلامية الهدف الأول للهجوم الشامل والمضاد للعالم العربي-الإسلامي؟.. لا غرابة في ذلك!

ولقد ظهرت في العصر الحديث محاولات كثيرة لطمس معالم الوجه المشرق للحروب الثوروية الإسلامية سواء عن طريق تشويه صفحة قادتها بالدس اللئيم، أو عن طريق اسدال الستار على المضمون الاجتماعي لهذه الثورات بما يتنافى مع قواعد الشرف-شرف أصالة الأمة العربية- وصرفها عن طريقها السوي باعطائها مضامين تحمل زي العصر (نموذجه وبدعته- المودة). ومن هنا تظهر الحاجة لإبراز الوجه المشرق (للحروب الثوروية الإسلامية) بهدف تأكيد الطابع المميز لها، وبهدف المحافظة على أصالة هذا الطابع من أجل اعتماده قاعدة ثابتة لبناء المستقبل.

كلمة لا بد منها هنا، وهي الإشارة الى الدعم الذي قد
وزارة الدفاع في الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية وذا
للحصول على الوثائق والبيانات والمعلومات التي اغنت هذا (البحث
والبحوث التي ستصدر تباعاً في مجموعة (الحروب الثور
الإسلامية)، وكلمة شكر للعاملين في (المحافظة السياسية)
الجزائر، وكذلك العاملين في وزارة الإعلام الجزائرية ووزارة قد
المجاهدين لما قدموه من دعم ومساعدة تعجز كلمات الشكر
وفائها حقها. والله أسأله التوفيق.

بسام العسلي



خير الدين باشا في شيخوخته

(متحف البحرية العثمانية باستامبول)



التمثال الذي أقامه الأتراك لخير الدين باشا امام ضريحه في استامبول

الوجيز في حياة (خير الدين بربروس)

٨٧٧ ـ ٩٥٧ هـ = ١٤٧٠ ـ ١٥٤٧ م

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٨٧٧	١٤٧٠	ولادة خير الدين في جزيرة (مدلي) في الارخبيل.
٩١٨	١٥١٢	عروج وأخوه خير الدين يهاجمان الاسبانيين في بجاية (الجزائر).
٩٢٠	١٥١٤	الاخوة (بربروس) يهاجمان بجاية للمرة الثانية.
٩٢١	١٥١٥	الاخوة (بربروس) يهاجمان بجاية للمرة الثالثة.
٩٢٢	١٥١٦	الاخوة (بربروس) يهاجمان الاسبان في مدينة (الجزائر).
٩٢٣	١٥١٧	خير الدين يحرر مدينة (تنس) من الاسبانيين.
٩٢٤	١٥١٨	استشهاد (عروج بربروس) عن عمر يناهز الخمسين واحتلال الاسبانيين مدينة تلمسان.
٩٢٥	١٥١٩	خير الدين ينتقم لاخيه فيدمر الاسطول الاسباني امام الجزائر.

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٩٣٥	١٥٢٩	خير الدين يدمر معقل الصخرة الجزائري وحاميته الاسبانية.
٩٣٦	١٥٣٠	انتصار خير الدين على الاسبانيين في جزر الباليثار.
٩٣٧	١٥٣١	انتصار خير الدين على الاسبانيين في (شرشال).
٩٣٩	١٥٣٣	السلطان سليمان القانوني يعين خير الدين (أميراً للبحر).
٩٤١	١٥٣٥	الاسبانيون يهاجمون مدينة تونس ويدمرونها.
٩٤٧	١٥٤١	شارلكان يقود حملة صليبية ضد المغرب الاسلامي وفشل هذه الحملة.
٩٤٩	١٥٤٤	خير الدين يهاجم المدن الاسبانية ويرفع الحصار عن (نيس).
٩٥١	١٥٤٦	خير الدين يعود الى القسطنطينية للاضطلاع باعباء عمله كوزير للبحرية.
٩٥٢	١٥٤٧	وفاة خير الدين وتعيين ابنه حسان (اميراً للبحر).

أبرز احداث العالم الاسلامي
في فترة حياة (خير الدين بربروس)

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٨٥٥-٨٨٦	١٤٥١-١٤٨١	حكم السلطان العثماني محمد الثاني الفاتح.
٨٥٧	١٤٥٣	المسلمون العثمانيون يفتحون القسطنطينية.
٨٦١	١٤٥٣	المسلمون يحاصرون (بلغراد)
٨٦٦	١٤٦١	المسلمون يخضعون المورة.
٨٧٣	١٤٦٨	اخضاع الالبانيين
٨٨٦ - ٩١٨	١٤٨١-١٥١٢	حكم السلطان العثماني بايزيد الثاني.
٨٩٨	١٤٩٢	سقوط غرناطة، وخروج المسلمين من الأندلس
٩٠٥-٩٠٩	١٤٩٩-١٥٠٣	الحرب ضد البندقية
٩١٨-٩٢٧	١٥١٢-١٥٢٠	حكم السلطان العثماني سليم الأول.

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الاحداث
٩٢٤	١٥١٦	انتصار السلطان السليم على (قانصوه الغوري) عند (مرج دابق).
٩٢٥	١٥١٧	العثمانيون يفتحون مصر
٩٢٧ ـ ٩٧٤	١٥٢٠ ـ ١٥٦٦	حكم السلطان العثماني سليمان القانوني.
٩٢٩	١٥٢٢	البحرية الاسلامية تفتح رودس.
٩٣٣	١٥٢٦	موت (ملك المجر لويس) في معركة مهاج (موهاكس).
٩٤٠ ـ ٩٥٢	١٥٣٣ ـ ١٥٤٧	ذروة نشاط (خير الدين بربروس).

إِنَّهُم إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُموكُمْ
أَوْ يُعيدُوكُمْ في مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا
إِذاً أَبَداً.
(الكهف - الآية ٢٠)

الفَصْلُ الأوّل

مقدمات الحرب وظروفها

١- ذوي اللحى الشقراء
٢- الموقف على جبهة المسلمين في المشرق
٣- الموقف على جبهة الاندلس
٤- الموقف على جبهة المغرب الإسلامي
٥- الجهاد في البحر والقرصنة

١ - ذوي اللحى الشقراء

اجتاحت العالم العربي والإسلامي موجة من الحزن والأسى في يوم من أيام شهر أيار (مايو) سنة (٩٥٢هـ = ١٥٤٧م) لفقد علم من أعلام الجهاد، ولغياب سيف من سيوف الإسلام. وقوبلت هذه الموجة في الغرب بموجة مضادة، حيث عمت الفرحة وسارت البشائر في كل الأقاليم الأوروبية بزوال الكابوس المرعب الذي طالما أرق ملوكها وأمراءها، وطالما هدد تجارتها واسطولها، وطالما أغار على ثغورها ومدنها الساحلية وقراها. لقد توفي أشهر أصحاب (اللحى الحمراء) أو (الشقراء) وهو الذي أمضى حياته في البحر، مجاهداً في سبيل الله، صابراً محتسباً. لم يطلب في حياته مجداً ولا مالاً، ولم يعمل من أجل الجاه او المنصب، ولو أنه حصل على المنصب دونما ارادة منه، وسعى اليه الجاه بدون أن يعمل هو من أجله. ومضى شيخ المجاهدين عن عمر يناهز الثمانين. لم يتعبه الجهاد، ولم تنل من عزيمته المحن والنوائب، ولم تصرفه عن مبتغاه الخطوب الجسام. لقد ابتلع البحر أعز أهله واصدقائه، وقضى في الجهاد أحب اخوته اليه وأغلى ما في الدنيا لديه، فما في الحياة بعد ذلك ما يشده اليها غير الأمل في المضي قدماً لرفع راية الجهاد التي سقط تحتها الأبرار الاطهار، ففي ذلك وفاء

لأرواحهم. لقد قضى هؤلاء دفاعاً عن حرمة الدين التي انتهكت، فما في الدنيا أعز ولا أغلى من طلب إحدى الحسنيين الشهادة أو النصر.

وعلى هذا الطريق سار (ذوي اللحى الشقراء) مدافعين عن ثغور المسلمين خلال فترة تاريخية، تألبت فيها قوى الصليبية ضد المسلمين في الأندلس الإسلامية، فأخرجوهم من ديارهم، وشددوا عليهم الخناق، وعملوا فيهم تقتيلاً وتشريداً وسبياً ونهباً حتى ضاقت عليهم الدنيا بما رحبت. وظهر البطل المنقذ كما يبزغ الشهاب في السماء المظلمة. فمد يد العون لمن امتنع عليهم كل عون، وقدم المساعدة عندما عزت المساعدة على أحوج الناس اليها.

وخلال تلك الفترة التاريخية، انتقلت القوات الاسبانية للهجوم على المغرب العربي الإسلامي -تحت راية الصليبية- وتم لهذه القوى احتلال المدن الساحلية، وأعملوا فيها تدميراً للمساجد وانتهاكاً للحرمات ونهباً للثروات والاموال. فمضى (أصحاب اللحى الشقراء) لتقديم ما يستطيعون من أجل دعم اخوانهم في الدين. فسطروا بذلك أروع الملاحم واعظم الانتصارات، وعرفت ميادين الجهاد في البر والبحر فضائلهم ومآثرهم، فكان في ذلك خلودهم الذي وقر في قلوب العرب والمسلمين، لا في المغرب الإسلامي فحسب، وإنما في كل دنيا العرب وسائر ديار المسلمين.

وذوي اللحى الشقراء، صفة أطلقها الافرنج- الافرنسيون- على تلك العائلة التي تزعم افرادها عملية الجهاد في البحر (باربروس - برباروسا) ثم نقلت الى العربية بحرفيتها، وبقيت سائرة حتى كادت تطغى على الاسماء الأصلية لمجموعة الاخوة المجاهدين.[1]

---

(١) باربروس ؛ BARBEROUSSE ، اسم اطلق على الاخوين عروج وخير الدين

نشأ هؤلاء الأخوة في جزيرة (مدلي) من بحر الأرخبيل، لأب تركي اسمه (يعقوب بن يوسف) كان متزوجاً من سيدة أندلسية ولدت له أربعة أبناء هم (اسحاق وعروج وخسرف ومحمد الياس). وقد حرص الأب على تنشئة أبنائه نشأة إسلامية صلبة، وقد اختار الابن الأكبر طريق العلم والمعرفة فمضى في دراساته الإسلامية. في حين انصرف بقية الأخوة للجهاد، واختاروا البحر ميداناً لهم. فكان عروج (بضم العين والواو) هو الذي افتتح المجال أمام اخوته إذ أنه ركب البحر ولما يتجاوز العاشرة من عمره الا قليلاً. وأمكن له بعد فترة قصيرة أن يجهز مركباً خاصاً به، تولى قيادته بنفسه غير أنه لم يبتعد كثيراً حتى أسره الاعداء في بحار الشرق، فعمل في المجاذيف والقيد في رجله مدة سنتين.

لكنه تمكن من الفرار، إذ ألقى بنفسه في البحر وهو على مقربة من سواحل مصر، ومنها ركب البحر عائداً الى جزيرته (مدلي) حيث أبوه واخوته. غير انه كاد يسقط أسيراً من جديد، وكان على مقربة من سواحل قرمان التركية، فأكرمه كوركود ابن السلطان (بيازيد) الذي كان يتولى امارة (قرمان) ورأى فيه جندياً بارزاً ومقاتلاً شجاعاً، فجهز له سفينة قرصنة، وبعث به غازياً في بحار ايطاليا، حيث كانت الحرب ضد الإسلام والمسلمين على أشدها، فأقتنص سفينتين محملتين بالبضائع الثمينة كانتا تابعتين لدولة البابا. وأقتنص سفنا ايطالية اخرى، رجع بها الى ميناء الإسكندرية بعد أن دفع الخمس من الغنائم لبيت مال المسلمين.

ثم ركب البحر من جديد على رأس أسيطيله الصغير (عمارة) بعد أن ضم اليه السفن التي غنمها. وانضوى تحت لوائه جماعة من المجاهدين الاشداء. وعزم أن يلقي بثقله في غربـي البحر الأبيض

المتوسط، وبجهة الأندلس موطن أمه بصفة خاصة. واختار جزيرة جربة قاعدة لنشاطه، وهناك انضم اليه اخوه خسرف، وقد أصبح مثله على رأس سفينة قرصنة حربية، وانطلقا من هناك الى ناحية الأندلس، ينصران الإسلام، وينقذان اللاجئين الأندلسيين الى العدوة المغربية. ويمعنان في أساطيل النصارى تدميراً وأسراً. هنالك أطلق النصارى لقب(بربروس) على كل من الاخوين (عروج وخسرف).

وهنالك أيضاً اقترح بعض الأندلسيين والمغاربة على (خسرف) أن يغير اسمه، وأطلقوا عليه منذ تلك الساعة اسم -خير الدين-.

كان (بنو حفص) يحكمون تونس وطرابلس والشرق الجزائري، وفي سنة (١٥١٠م) تقريباً رأى السلطان الحفصي أبو عبد الله محمد أن يستعين بهذين البطلين لحماية الدين والدولة من إغارات النصارى وهجماتهم البحرية، وأن يجعل مما يدفعانه من خمس الغنائم مورداً يدعم خزانة الدولة التي لم تكن مزدهرة، فأقطعهما مرفأ (حلق الوادي) يتخذان منه قاعدة لمحاربة من يحارب الإسلام.

خرج الأخوان (عُروج وخير الدين) من قاعدتهما الجديدة ومعهما قوة ثلاث سفن صغيرة، وعندما أوغلا في البحر اصطدما بسفينة حربية كبيرة كانت تنقل من نابولي الى برشلونة ثلاثمائة جندي اسباني. وكانت سفينة نابولي أقوى بحجمها وبنيران مدفعيتها من قوة مجموعة السفن الثلاث. وعلى الرغم من ذلك فقد قرر الأخوان (عروج وخير الدين) مهاجمتها انتقاماً لما كان يرتكبه الاسبان من جرائم ضد المسلمين.

واندفعت السفن الثلاث الصغيرة في محاولة لأسر السفينة غير

أن هذه استطاعت الإفادة من قدرتها النارية الضخمة، فأحبطت محاولات السفن الإسلامية سبع مرات متتالية. وفي الهجوم الثامن، وبعد أن أصيب (عروج) بجرح بليغ، نجح خير الدين بالوصول الى السفينة المعادية وقذف بنفسه فوقها، ولحق به المجاهدون بسرعة، وأمكن لهم الاستيلاء على السفينة بعد معركة عنيفة وقاسية، وأسروا كل من فيها واقتادوها الى مرسى (حلق الوادي) وهي تحمل رايتها.

واعترافاً بجميل السلطان أبي عبد الله محمد، فقد ساق الأخوان (عروج وخير الدين) اليه في أبهة تفوق الوصف الهدايا الفاخرة مما غنماه، زيادة على الخمس الشرعي، وقد شملت الهدايا عددا من كبار وكبيرات الاسرى، واشتد أعجاب السلطان بهما وتقديره لهما. ومضى خير الدين يمارس نشاطه، حتى اذا ما شفي أخوه (عروج) من جراحه، انضم اليه وانطلقا للعمل معاً (في سنة ١٥١٢م).

تلك كانت البداية..

٢ـ الموقف على جبهة المسلمين في المشرق

حرر المسلمون مدينة عكا من بلاد الشام في السنة (٦٩٤هـ = ١٢٩٤م) وطردوا بقايا الافرنج الصليبيين من كل قلاعهم وحصونهم. واعتنق دين الإسلام من رغب البقاء في المشرق الإسلامي. وأصيب الغرب بخيبة أمل مريرة وهو يرى البناء الضخم الذي أقامه طوال مائتي عام وهو ينهار دفعة واحدة وتبتلعه رمال الشرق الدافئة. فانطلقت الدعوات التي تزعمها البابا نقولا الرابع في محاولة لتنظيم حملة صليبية جديدة، غير انه بات واضحا أنه من المحال إعادة عجلة التاريخ الى الوراء، فانهارت كل الجهود لإرسال حملة للمشرق الإسلامي. ولم تثمر الا عن توجيه قوة مختلطة أغارت على الإسكندرية ونهبتها ودمرتها (سنة ١٢٦٥م). بالإضافة الى تلك الحملة المشؤومة التي قادها لويس التاسع سنة (١٢٧٠م) فوصلت تونس وانتهت هناك بموت لويس التاسع (أو القديس لويس) على أبواب تونس، بدون أن تحقق نتيجة أكثر من النهب والتدمير.

وعاشت مصر والشام بعد ذلك تحت حكم المماليك البرجية الذين بدأ عهدهم بالمظفر قطز بطل (عين جالوت) وانتهى بقانصوه

الغوري سنة (١٥١٧ م). وقد انصرف المسلمون في المشرق خلال هذه الفترة الى تضميد جراحهم، ومتابعة الصراع ضد المغول (التتار) أحياناً وضد الروم (البيزنطيين) في الشمال أحيانا أخرى. وتميزت هذه الفترة بصورة عامة بالهدوء والاستقرار، فانصرف الناس للصناعة والتجارة، وعرف المشرق الإسلامي حالة من الرخاء لم يعهدها منذ زمن طويل.

غير أن توقف الحروب الصليبية في المشرق لم يضع حداً نهائياً للحروب. فقد تحول الصراع الى جبهتين اولاهما (اوروبا) والثانية (الأندلس) بالإضافة الى جبهة وسيطة بين الجبهتين هي جبهة البحر. وقد ظهرت خلال هذه المرحلة قوة جديدة اخذت على عاتقها قيادة (الجهاد في سبيل الله) وكانت هذه القوة هي قوة (الاتراك العثمانيين).

وكان العرب المسلمون قد نظموا الدفاع عن الثغور منذ الأيام الأولى للفتح. فأقاموا الحاميات في المواقع الحصينة على امتداد حدودهم مع بلاد الروم البيزنطيين، وكانت هذه الثغور مواقع دفاعية هجومية في آن واحد، واجبها رد الغزوات المباغتة للاعداء، والانطلاق منها لغزو بلاد هؤلاء الأعداء.

واستمر هذا التنظيم القتالي طوال العهدين الاموي والعباسي. وعندما أقام عبد الرحمن الداخل الحكم الأموي في الأندلس، أعاد تطبيق التجارب القتالية. وكانت طبيعة الحدود الجبلية مع الروم البيزنطيين (حيث جبال الأمانوس) تتشابه مع الحدود الجبلية الشمالية للأندلس (حيث جبال البيرينه - أو جبال البرتات كما يسميها المؤرخون العرب). فكانت تجربة الثغور هي التجربة الرائدة التي حفظت للعرب المسلمين حدودهم وثغورهم.

وكانت هذه الثغور هي الميادين المثلى للجهاد في سبيل الله، وهي في الوقت ذاته مجال التجارب لتطوير الكفاءة القتالية وإغناء التجارب الحربية. غير أن ظروف الحروب الصليبية قضت على (استراتيجية حروب الثغور) إذ انتقل الصراع الى قلب العالم العربي الإسلامي.

ولكن ما أن طردت جحافل الغزاة الافرنج، حتى بعثت قيم الجهاد في سبيل الله من جديد، ونزل في بلاد الاناضول عدد كبير من المجاهدين ورجال الدين - من العرب والترك والفرس - أخذوا على عاتقهم إثارة الحماسة ضد الروم (البيزنطيين). وبتأثير تلك الحماسة الدافقة، اجتاح الأتراك غربي آسيا الصغرى، وأقام أمراء الغزاة دويلاتهم المستقلة في مختلف المقاطعات، فنزل القرمانيون في ليقاؤنية القديمة وايسوريا، ونزل الكرمانيون في كوتاهية، واستقر الحميديون في ميسية، والصاروخان في مغنيسية. ولم يقض على هذه الامارات نهائياً إلا عند ظهور العثمانيين. وبينما كان هؤلاء الغزاة يتقدمون براً كانت قبيلة (المنتشا) التي نشأت نشأة بحرية فشكلت اقوى الإمارات وأعظمها شأناً، كانت هذه القبيلة تنطلق من سواحل ليقية وبمفيلية الى قاريا، لتجتاح منها شواطىء بحر ايجه. ثم تفتح رودس، مهددة بذلك روما وامبراطوريتها.

وكان العثمانيون من بين اولئك الأتراك الذين حملوا راية الجهاد في سبيل الله ضد (البيزنطيين) وحالفهم الحظ أكثر من سواهم، ولا يعني البحث هنا التعرض لأصول هذه القبيلة ومراحل تطورها، وما عانته من صداماتها مع المغول (التتار). المهم في الأمر هو أن المؤسس الحقيقي لهذه الأسرة وهو (أرطغرل) قد لجأ ومعه مائة أسرة الى آسيا

الصغرى ليلتحق وإياهم بخدمة علاء الدين الثاني السلجوقي، سلطان قونية. فأقطعه علاء الدين منطقة المستنقعات الواقعة على الحدود المواجهة للبيزنطيين عند (سكود) في وادي (قره صو) حيث الفرات الغربي وجبلي طومانيج وأرمني طاغ، وترك له حرية توسيع ممتلكاته على حساب جيرانه النصارى.

وتولى (عثمان) بن (أرطغرل) على عاتقه هذا الواجب، فكان أول عمل له هو فتح (ملانجنون) وتسميتها باسم (قره جه حصار) والانتقال اليها وجعلها بمثابة عاصمة للدولة الجديدة في سنة (١٢٨٨م). واستأنف الحرب ضد البيزنطيين. فتقاطر اليه المجاهدون من أرجاء آسيا الصغرى جميعاً، وانضم اليه المقاتلون من القبائل التركية المختلفة، ولحق به (الأخيان - أو الاخوان) وهم جماعات الصناع والتجار.

ومن (قره جه حصار) قاد عثمان شعبه القوي، الذي كانت ترفده القبائل التركية كلها على الدوام بعناصر جديدة تزيد في قوته وحيويته الى بحر مرمرة والبحر الأسود، وفي اتجاه الغرب الى يني شهر (يكي شهر) التي تسيطر على مخاضة نهر سقارية. وفي سنة (١٣٠٠م) أقطع عثمان ابنه اورخان مدينة (قره جه حصار). فأخذ هذا في متابعة الجهاد.

وفي سنة (١٣٢٦م) وبينما كان عثمان على فراش الموت، في سكود، كان ابنه اورخان يتوج أعماله الكبيرة باحتلال (بروسة) الواقعة على سفح جبل الأولمبوس (كشيش طاغ). فكان أول عمل له أن دفن أباه في كنيسة القصر التي حولت للتو والساعة الى

مسجد[1] ومن ذلك الحين أضحت (بروسة) مدينة العثمانيين المقدسة .

وقد عرف عن (اورخان) اهتمامه بالتنظيم الشامل للدولة، وعنايته الخاصة بإعادة تنظيم الجيش، وخاصة قوات (يني جري- القوة الجديدة - ومنها الإنكشارية) .

وفي سنة ١٣٦٢ م، توفي اورخان؛ فخلفه على العرش ابنه الثاني مراد الذي اتجه في الحال نحو شبه جزيرة البلقان، وأمكن له احتلال (ادرنة) وجعلها عاصمة له حتى سقوط القسطنطينية .

وحاول البابا (اوربانوس الخامس) أن يدعو النصارى الى حملة صليبية تستنقذ أدرنة من أيدي المسلمين، ولكن عبثاً . وعلى الرغم من أن جيشاً من فرسان النصارى يقوده كونت سافوا (أماديوس) استطاع أن يوطد أقدامه في غاليبولي لفترة قصيرة، غير أنه أخفق في التفاهم مع البيزنطيين على خطة مشتركة، فاضطر الى الانسحاب في وقت قريب .

ثم تجمعت قوات الصرب بقيادة (ووقاجين) لقتال العثمانيين الذين انتصروا عليهم (على ضفاف نهر مريج). واحتل العثمانيون على أثر ذلك مقدونيا بكاملها (في سنة ١٣٧١) ثم احتلوا صوفيا ونيتش (سنة ١٣٨٥- ١٣٨٦م). وتزعم ملك بلغاريا (ششمان الثالث) حلفاً مع الصرب والبشناق، والحق الهزيمة بالجيش العثماني (سنة ١٣٨٧م) غير أن قوات العثمانيين انتصرت في السنة التالية على

---

(١) ضمت نقوش جامع بروسه الذي بناه (اورخان بن عثمان) سنة ١٣٣٤ م ما يلي: «شيد هذا المسجد السلطان بن سلطان الغزاة، الغازي بن الغازي مرزبان الآفاق بطل العالم» تاريخ الشعوب الاسلامية- كارل بروكلمان ص ٤٠٨ .

(ششمان) وأسرته في مدينة (نيقوبوليس).

وفي سنة ١٣٨٩، تجمعت قوات ضخمة من الصرب والبشناق والمجر والبلغار والالبانيين- الارناؤوط- والتقت بالقوات العثمانية عند (قانصوه- ميدان الطيور السود) وقاد مراد الهجوم بنفسه، غير أنه سقط قتيلاً وهو في ذروة انتصاره. فتولى ابنه (بايزيد) اكمال النصر وذلك بأسر ملك الصرب- لازار- وقتله. وتابع (بايزيد) سيرة الجهاد، فلم تمض أكثر من ثلاث سنوات حتى تم إخضاع الصرب بكاملها وبلاد البلغار، مع الاستيلاء على (آلاشهر) آخر ممتلكات البيزنطيين في آسيا الصغرى.

وعاد البابا (بونيفاسيوس التاسع) ليرفع راية الحرب الصليبية وهو يشهد انتصارات العثمانيين ويسير الدعاة بدعوته للحرب ضد المسلمين في فرنسا والبلدان المجاورة لجبال الألب وجنوبي ألمانيا. وما أن أطلّ ربيع سنة (١٣٩٤ م) حتى كان (سيجسموند) ملك المجر قد جمع حوله في (بودا) جيشاً ضخماً من الفرسان تقاطروا اليه من بلدان أوروبا الغربية. واصطدم هذا الجيش بجيش المسلمين الذي كان يقوده (بايزيد) يوم (٢٧- أيلول- سبتمبر) عند نيقوبوليس، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين انتصاراً حاسماً. وتوغلت الجيوش العثمانية اللاحقة بفلولهم حتى (ستيريا). ثم ان بايزيد اقتص من حكام شبه جزيرة المورة اللاتين الذين حالفوا الصليبيين فدمر أراضيهم.

أما الخطر المغولي فقد عاد من جديد بظهور (تيمور) الذي اجتاح بلاد الشام، ثم انكفأ للهجوم على العثمانيين. وحدثت المعركة بين جيش المسلمين بقيادة بايزيد وبين المغول عند جبق آباد (جبوق

آباد) يوم ٢٠ تموز (يوليو) سنة ١٤٠٢ م. وانتصر (تيمور) فحمل معه (بايزيد) في قفص من حديد الذي لم يلبث حتى توفي في ٨ آذار - مارس- سنة ١٤٠٣، فأكرمه (تيمور) بأن سمح بدفنه في جامع بروسة.

وتعرضت الدولة العثمانية على أثر هذه النكسة الى حالة من العطالة والتمزق الداخلي لم ينقذها منها إلا ظهور مراد الثاني الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه السلطان محمد في أدرنة سنة ١٤٢١ م.

أمضى (مراد الثاني) فترة من الوقت لإعادة تنظيم الدولة والقضاء على مناوئيه. حتى إذا ما جاء يوم ٢٩ آذار (مارس) ١٤٣٠ م اقتحمت قوات المسلمين مدينة سالونيك ودمرتها تدميراً تاماً. ثم ان مراداً حاول ان يبسط سلطانه على البلقان، فتصدت له القوات المجرية، واستطاع (يوحنا هونيادي) الترانسلفاني تكبيد قوات العثمانيين خسائر فادحة اوقفت تقدمهم. وشكل ذلك حافزاً للقيام بدعوة صليبية جديدة تشنها النصرانية على اعدائها. ورحب النصارى باعلان (البابا اوجانيوس الرابع) لهذه الحرب ترحيباً حماسياً في المجر وبولندة- بولونيا- والمانيا وفرنسا.

وغادر الجيش الصليبي مدينة (بودا) في تموز- يوليو- سنة (١٤٤٣ م) ليحرز في ٢٤ كانون الاول - ديسمبر- انتصاراً كبيراً عند (جالوواز) بين صوفيا وفيليبوبوليس. وتوقفت هذه الحملة لتستأنف تقدمها في صيف السنة التالية حيث اصطدمت عند وارنا (فارنا) بجيش العثمانيين الذي كان يقوده (مراد الثاني) وحدثت المعركة يوم ٩ تشرين الثاني- نوفمبر- ١٤٤٤. وكان انتصار العثمانيين رائعاً تم به إزالة آثار هزيمة السنة السابقة.

وحدثت معركة أخرى في ١٧ تشرين الأول - اكتوبر- ١٤٤٨ بين حاكم المجر (هونيادي) وبين مراد الثاني، في سهل قُوصوه. وبعد معركة استمرت يومين انتصر مراد الثاني انتصارا حاسمًا.

وتوفي (مراد الثاني) في ٥ شباط (فبراير) سنة (١٤٥١ م) وتولى ابنه (محمد) الملك فمضى لتوطيد دعائم حكمه، ثم انطلق لمتابعة سياسة أسلافه، فقام بتشييد قلعة (روم ايلي حصار) المنيعة على بعد لا يتجاوز سبعة كيلومترات من ابواب القسطنطينية، عند أضيق نقطة من البوسفور، وذلك في آواخر سنة (١٤٥١ م). وعندما أرسل الامبراطور البيزنطي احتجاجاً للسلطان محمد أمر هذا بقطع رؤوس افراد الوفد الذي حمل الاحتجاج عليه، وكان ذلك بداية المرحلة الأخيرة للصراع الذي قضى على ما تبقى من امبراطورية الروم (البيزنطيين).

فقد حاصرت جيوش الأتراك العثمانيين القسطنطينية، وعزلتها عن العالم، وحاولت أوروبا دعمها غير أنها فشلت في مساعيها. وفي ٢٩ أيار (مايو) اقتحمت قوات المسلمين عاصمة الروم التي اعجزت المسلمين من قبل. ودخل السلطان محمد المدينة، فتوجه الى كنيسة آيا صوفيا. واستولى عليها رسمياً باسم الإسلام، وحولها الى مسجد. وانتهى عصر، وبدأ عصر جديد.

انصرف السلطان محمد الفاتح لإعادة تنظيم الدولة وتحويل (استانبول) الى عاصمة جديرة بالدولة الإسلامية الواسعة الأرجاء، وذلك قبل انتقاله لتحقيق أول هدف له، وهو دعم الوجود الإسلامي في شمال شبه جزيرة البلقان، حيث كان المجر الأشداء في الحرب لا يزالون يتهددونها باستمرار. وكان لا بد للسلطان محمد من دعم

الوجود الإسلامي في الصرب بقوة حتى يمكن له الانطلاق لحرب المجر. وحدثت معارك كثيرة، انتهت بجعل نهر الدانوب (نهر الطونة) هو الحاجز بين قوات العثمانيين المسلمين وأعدائهم.

وفي سنة (١٤٥٦ م) قاد السلطان محمد الجيش بنفسه الى بلغراد وحاصرها، غير أنه لم يتمكن من فتحها، فعاد في سنة (١٤٥٨م) لمهاجمتها من جديد واستطاع فتحها. وفي الوقت ذاته القضاء على التمرد في شبه جزيرة المورة. وانتقل بعد ذلك لاخضاع اليونان، وتم له ذلك في الفترة من سنة ١٤٦٢ م حتى سنة ١٤٦٦ م. وبذلك لم يعد (للبنادقة) دور يذكر في التحريض ضد المسلمين. وأمكن بعد ذلك تدمير مقاومة الالبانيين- الارناؤوط من البوسنة الى حدود البندقية. وتدفقت جموع الأتراك العثمانيين على أوروبا. واضطرت البندقية الى عقد صلح شريف مع العثمانيين في ٢٦ كانون الثاني- يناير- سنة (١٤٧٩م) حيث تنازلت فيه عن جميع ممتلكاتها في ألبانيا لمصلحة العثمانيين. وفي جملتها دراج (دوراجو) وانتيغاري واوبة ولمنوس وتايجت في المورة.

توفي السلطان (محمد الفاتح) في ٣ أيار (مايو) سنة ١٤٨١. فعرفت الدولة فترة من الجمود الخارجي في عهد ولديه (جم وبايزيد) واستمر ذلك في عهد (سليم واحمد) ابني بايزيد. وعندما استتب الأمر للسلطان (سليم) انصرف لحرب الشيعة في فارس. ثم انتقل لتصفية حكم المماليك البرجية في الشام ومصر، وتم له ذلك بعد معركة (مرج دابق شمالي حلب بتاريخ ٢٤ آب اغسطس سنة ١٥١٦)، حيث سار السلطان سليم بعدها الى مصر، فانتصر على (طومان باي) وقتله في ٢١ كانون الثاني- يناير (سنة ١٥١٧ م).

واحدثت فتوح سليم ذعراً صارخاً في أوروبا، حتى لقد خشي البابا (ليو العاشر) من اتحاد كلمة المسلمين مرة اخرى فشرع يعد العدة للحرب، ولتوجيه حملة صليبية جديدة بحجة حماية المسيحيين من أذى المسلمين. ولعل سليمًا كان يفكر في استئناف خطته لفتح الغرب يوم رجع الى (ادرنة) سنة ١٥١٨ م غير انه لم يلبث أن توفي وهو في طريق عودته الى (استانبول) في ٢ـ ايلول ـ سبتمبرـ سنة ١٥٢٠ م.

ورقي ابنه (سليمان ـ الذي اشتهر بالقانوني) عرش المملكة بدون معارضة. وانصرف اول ما انصرف الى تحقيق أخطر ما تركه له أسلافه من مهام، وذلك بالاستيلاء على الحدود الشمالية. وتمكن العثمانيون بقيادة السلطان، من احتلال بلغراد (سنة ١٥٢١ م). ثم ان سليمان اختصر بعد هذا النصر الحملة الشمالية ابتغاء انفاذ خطة ابيه الأخيرة الهادفة الى فتح (رودس)، حيث كان فرسان القديس يوحنا لا يزالون يمدون حملات القراصنة النصارى العاثثين فساداً، بالمساعدة. وفي نهاية تموز (يوليو) سنة ١٥٢٢، ضرب العثمانيون الحصار على القلعة. ولكن قائد المنظمة الأكبر لم يستسلم إلا في ٢١ كانون الأول ـ ديسمبرـ بعد أن تكبد الجانبان المتصارعان خسائر مريعة. وبعد أن منح حرية الإنسحاب لجميع الفرسان، وتعهدت الدولة العثمانية بالمحافظة على سلامة أشخاصهم وممتلكاتهم، وباسقاط الجزية عن أهل الجزيرة الأصليين ـ وهم نصارى ـ خمس سنوات كاملة.

كانت السياسة الافرنسية تقوم على مناهضة أسرة (هابسبورغ)[1] الملكية، وبذلك خطا (السلطان سليمان) خطوات

(١) اسرة هابسبورغ: «(MAISON DE HABSBOURG)» عائلة ألمانية تكونت في =

بعيدة في تحالفه مع (آل بوربون)[1] من أجل تنفيذ مخططاته ضد جارته الشمالية (المجر). وما لبثت العلاقات الودية ان تطورت منذ ذلك الحين بين باريس واستانبول، فضمنت فرنسا لنفسها طوال القرون التالية مركزاً ممتازاً بين الدول الكبرى في كل ما يتصل بالسياسة الشرقية، غير أن ذلك لم يمنع فرنسا في بعض الفترات من الاسهام بدعم الحملات الصليبية ضد الأقطار الإسلامية، وأحياناً ضد الدولة العثمانية ذاتها.

استأنف سليمان الحرب ضد المجر في سنة ١٥٢٦. ووقعت معركة (موهاج أو- موهاكس)[2] في ٢٨ آب - اغسطس-

---

= البداية ونشأت في اقليم السواب (SOUABE) أو بالالمانية (SCHWABEN) الذي كان دوقية وأصبح اليوم يشكل القسم الجنوبي- الغربي من بافاريا وعاصمته اوغسبورغ AUGSBOURG . وقد عرفت هذه الاسرة بثرائها الفاحش. وقد اشتقت الاسرة اسمها من قصر حصين كانت تمتلكه في سويسرا (اقليم اوكانتون ارغوفي: ARGOVIE) وقد وسعت هذه الاسرة حدودها فضمت إليها سويسرا والالزاس منذ سنة (١١٥٣ م) وشكلت بعد ذلك مملكة(امبراطورية)في عهد رودولف هابسبورغ ضمت بالاضافة الى املاكها السابقة أقاليم بوهيميا وهنغاريا واسبانيا وسيطرت على النمسا والبلاد المنخفضة وقسماً من ايطاليا والعالم الجديد- امريكا- وفي عهد الامبراطورة ماريا تيريزا- امبراطورة النمسا التي شنت الحروب السيليزيه ضد فريدريك الثاني (حرب السبع سنوات) توطدت عرى الصداقة مع (آل لورين) ثم جاءت عملية زواج ابنة ماريا تيريزا (من لويس السادس عشر) لتغير من علاقات هذه الاسرة، وتشكل لها فروعاً جديدة.

(١) آل بوربون: (MAISON DE BOURBON) يعود تاريخ هذه الاسرة الى القرن العاشر الميلادي. وقد انتقلت سيادة البوربونيين عن طريق المصاهرة الى (الدامبيير: DAMPIERRE) ثم الى الكابيسيين CAPETIENNE وبدأ فرع من هذه الاسرة بحكم فرنسا منذ حكم هنري الرابع (١٥٨٩) وابنه لويس الثالث عشر. ومنهم الفرع الذي يحكم اسبانيا حالياً (خوان كارلوس).

(٢) موهاج: (MOHACS) مدينة هنغارية تقع على الدانوب قريباً من الحدود اليوغوسلافية. وفيها انتصر السلطان سليمان على (لويس الثاني) سنة ١٥٢٦. وفيها ايضاً قتل الاتراك العثمانيون شارل اميراللورين سنة (١٦٨٧ م).

وانتهت هذه المعركة بمقتل ملك المجر (لويس) ومعه عدد كبير من رجال دولته. ولم تلبث (بودا)[1] أن سقطت في قبضة القوات العثمانية (في ١١ أيلول- سبتمبر) ثم ان الحرب نشبت بين ملك النمسا (فرديناند) وأمير ترانسلفانيا (جان زابوليا) بسبب النزاع على تاج المجر، فلم يكن من سليمان الا أن ناصر (زابوليا) على خصمه، واحتل (بودا) مرة اخرى في سنة (١٥٢٩ م) ليحتفل فيها بتتويج حليفه ملكاً على المجر. ومن ثم تقدم سليمان الى (فيينا) فحاصرها، ولكن قلة المؤن اضطرته الى رفع الحصار عنها في (١٥- تشرين الأول- اكتوبر) ولم تكن حملة سنة (١٥٣٢ م) أوفر حظاً من سابقتها. فقد صمدت قلعة (كوسك)- المجرية الصغيرة في وجه القوات العثمانية طوال شهر آب- أغسطس- فعمل على عزل القلعة، وقطع الإمدادات عنها حتى سقوطها في قبضة العثمانيين يوم (٢٨) من الشهر نفسه. ولكن اسطول الامبراطور شارل الذي كان يقوده أمير البحر الجنوي (اندريا دوريا) والذي كان يعمل في نجاح على شواطىء المورة، لم يلبث أن أضاع على السلطان سليمان ثمرة انتصاره. فتم عقد معاهدة للصلح بين المجر والسلطان سليمان. غير ان الصراع لم يتوقف، واحرز سليمان نصراً حاسمًا على (آل هابسبورغ) وضم إليه مساحة واسعة من بلاد المجر وفي (٢- أيلول- سبتمبر- ١٥٤٣) احتلت القوات العثمانية مدينة بودا، وحولت كنيستها الى مسجد، وأقامت ادارة عثمانية تتولى ادارة بلاد المجر.

ذلك هو الموقف على الجبهة الشرقية يوم ظهر الأخوان (ذوي اللحى الشقراء).

---

(١) بودا: (BUDA) كانت عاصمة المجر، تقع على الدانوب، ودمجت مع مدينة بست (PEST) سنة (١٨٧٣) لتشكل مدينة واحدة حملت اسم (بودا- بست).

٣ ـ الموقف على جبهة الأندلس

انطلقت شرارة الحروب الصليبية من الأندلس، وصحيح أن الصراع لم يتوقف بين المسلمين وأعدائهم، إلا أن قوة الحكم الأموي في الأندلس، وتماسك المسلمين في المغرب الإسلامي، حرم الافرنج من حرية العمل العسكري في الغرب بقدر ما حرمت قوة العباسيين الدولة البيزنطية من هذه الحرية في المشرق. وما نشب من القتال ضد المسلمين في الأندلس، اتخذ صفة الحرب المقدسة، ولم يلبث البابوات أن صار لهم يد في توجيهها.

ففي سنة (١٠٦٣م) لقي (راميرو الأول ـ روذقير) ملك أراغون مصرعه في (غرادوس) على يد أحد المسلمين عندما قام بهجوم على المسلمين، فأثار موته خيال اوروبا. فبادر البابا الاسكندر الثاني إلى أن يعد ببذل الغفران لكل من قاتل من أجل الصليب في اسبانيا. وشرع البابا في تأليف جيش لمواصلة عمل (راميرو). وبدأت حشود المقاتلين تتدفق من كل أنحاء أوروبا لقتال المسلمين في الأندلس. واستنزف هذا الصراع المستمر من قوة العرب المسلمين حتى جاء القشتاليون فاستولوا على طليطلة سنة (١٠٨٥م). واعتبر الافرنج بأن

استعادة (القوط) عاصمتهم القديمة هي نقطة التحول في الصراع، وذلك للانتقال من الدفاع الشامل الى الهجوم الشامل.

أعقب ذلك حركة إفاقة إسلامية عمل لها المعتمد بن عباد ـحاكم اشبيليا واقوى امراء الطوائفـ وأبرزها أمير المرابطين (يوسف ابن تاشفين). وتجلى ذلك في معركة الزلاقة سنة (١٠٨٦م). واشتدت دعوة الفرسان المسيحيين للقدوم الى اسبانيا لمحاربة المرابطين. وبذل البابا (ايربان الثاني) المساعدة وأخطر الحجاج بانه من الخير لهم انفاق أموالهم لمحاربة المسلمين بدلاً من إنفاق هذه الأموال في الحج الى فلسطين. واستمرت الحملات الموجهة إلى الأندلس وتحولت إلى حملات منتظمة بعد انتزاع (وشقة) من المسلمين سنة (١٠٩٦م) وباربسترو ـأو بربشترـ سنة ١١٠١.

ولم ينته القرن الحادي عشر، حتى تحولت فكرة الحرب المقدسة الى اتجاه عملي، إذ أن الفرسان والمحاربين المسيحيين لقوا التشجيع من السلطات الكنسية بأن يتخلوا عن منازعاتهم الصغيرة، وأن يتوجهوا الى أطراف العالم المسيحي لقتال الكفرة (المسلمين). ولم يجد البابا صعوبة في توطيد سلطته على ما قام من الكنائس بالأندلس مع كل انحسار للمسلمين وتراجع فوق الأرض الأندلسية.

مضت عشر سنوات على سقوط طليطلة، وعقد مجمع بياكنزا بزعامة البابا (ايربان الثاني) في سنة ١٠٩٥، واعقب ذلك انعقاد مجمع (كليرمونت) وهو المجمع الذي ضم ثلاثمائة من رجال الدين.

وأعلنت الحرب الصليبية بنداء البابا (فلينطلق المسيحيون بالغرب لنجدة الشرق). وانتظمت الحملات المتتالية التي استمرت مائتي سنة. (١٠٩٩-١٢٩١م) والتي عانى المشرق الاسلامي منها ما هو معروف من النكبات والكوارث.

خلال هذه الفترة لم يتوقف الصراع على جبهة الأندلس، وقد كان من المحال على المسلمين الأندلسيين الاضطلاع بأعباء الجهاد في سبيل الله وحدهم، فكان لهم في اخوانهم في المغرب الإسلامي ما يحتاجونه من الدعم. وتعاقب على الأندلس المرابطون فالموحدون، ثم استمر الجسر القائم بين الأندلس والمغرب في تأمين متطلبات الجهاد المستمر. حتى اذا ما انتهت الحروب الصليبية في المشرق، أصبحت الأندلس الاسلامية محاصرة في حدود مملكة (غرناطة) التي لقيت كل دعم من (بني مرين). وبذلك امكن (لبني نصر) الاحتفاظ براية الجهاد مرفوعة فوق جنوب الأندلس لمدة مائتي سنة أخرى. وليس من متطلبات البحث هنا التعرض بالتفصيل الى ذلك الصراع المرير، وتلك المعارك الدامية التي خاضها المسلمون في الأندلس، غير انه من الضروري التوقف قليلاً عند المرحلة الأخيرة من مراحل هذا الصراع نظراً لعلاقته بما تعرض له المغرب الإسلامي خلال تلك الحقبة التاريخية.

لقد قاد الصراع ضد المسلمين خلال تلك الفترة ـ على ما هو معروف ـ (ملك اراغون فرديناند)[1] الذي تزوج بملكة قشتالة (ايزابيلا)[2] فوحد قيادة الاقليمين ضد مملكة غرناطة، ودعمها في

---

(١) فرديناند الخامس الكاثوليكي (FERDINAND V LE CATHOILIQUE) من مواليد سوز (١٤٥٢ـ ١٥١٦ م) تولى الملك في سنة (١٤٧٤ م) اشتهر بانه سياسي عنيد وجريء، تزوج بايزابيلا ملكة قشتالة، ووحد تقريباً كل شبه الجزيرة الايبيرية، مما ساعده على تدمير قدرة المغرب الاسلامي والقضاء على مملكة غرناطة سنة ١٤٩٢.

(٢) ايزابيلا الاولى الكاثوليكية : (ISABELLE 1er LA CATHOLIQUE) ملكة قشتالة، من مواليد مدريد (١٤٥١ـ ١٥٠٤ م) تزوجت من فرديناند ملك أراغون ARAGON . ووحدت مملكتها قشتالة بمملكة اراغون مما ساعد على اكمال وحدة اسبانيا، وهي الوحدة التي هدفت الى القضاء على المملكة المغربية في (غرناطة). عملت على اقامة =

مخططاتها وزيرها (خمينيس)[1].

لقد خاض المسلمون في الاندلس صراعاً مريراً ضد قوات متفوقة، واستصرخ المسلمون اخوانهم في المشرق (المماليك البرجية). كما استنجدوا بالدولة العثمانية، غير ان كل قوة من القوى الإسلامية كانت مشغولة بأكثر من أعبائها، فهناك كان المغول والدول الأوروبية على حدود (بيزنطة). وفي مصر والشام كان المماليك قد ضعفوا الى درجة بات من الصعب عليهم تقديم جهد اضافي، ولا يعفيهم ذلك بدهياً من مسؤوليتهم التاريخية، ليس في ضياع الأندلس الإسلامية فحسب وإنما أيضاً فيما نزل بالمغرب الإسلامي. المهم في الأمر، هو أن هذا الصراع على جبهة الأندلس دمج فيما بين الأندلس الاسلامي والمغرب الإسلامي. الأمر الذي دفع باعداء المسلمين الى التطلع الى المغرب الإسلامي، واعتباره القاعدة الأساسية لقوة المسلمين التي انطلقت منها الفتوح لبلاد الأندلس، والتي استمرت طوال عهود حكم المسلمين فيها، على الرغم من كل التناقضات التي هيمنت في بعض الفترات على العلاقات الأندلسية ـ المغربية.

لم يفقد المسلمون ثقتهم بأنفسهم على الرغم من ثقل الهجمة

= محاكم التفتيش وشجعتها لإبادة المسلمين ودعمت وزيرها (خمينيس) لاداراتها.

(١) خمينيس: (XIMéNéS) أو (CISNEROS) واسمه. (FRANCOIS JIMENESDE) كاردينال: ولد في قشتالة (١٤٣٦ـ ١٥١٧) تم تعيينه اميناً لسر المملكة (١٤٩٢) ثم كاهنا لطليطلة (١٤٩٥) ثم حاكمًا لقشتالة حتى وفاة الملكة (١٥٠٤) ثم رئيساً لمحاكم التفتيش (١٥٠٦ـ ١٥١٦) وفتح وهران (١٥٠٩) اشتهر بقسوته الوحشية في ابادة المسلمين. وكان المحرض الاساسي لاحتلال مدن المغرب في محاولة لتنصير مسلمي المغرب.

الشاملة التي احاطت بالمسلمين الأندلسيين في جنوب شبه الجزيرة، وهي الهجمة التي دعمها البابا عندما فرض على المسيحيين ضريبة اطلق عليها اسم (ضريبة الصليبية). ولم تعد القضية هي قضية بطولة أو تضحية في مواجهة الهجوم الشامل، ولو أن هذه البطولة وتلك التضحية التي التحمت بعقيدة الانسان المسلم لم تعدم وجودها في يوم من الأيام ونسجتها خلال تلك الحقبة نماذج غير محدودة، لعل من اشهرها قصة (موسى بن أبي الغسان) الذي وقف في أحلك أيام (غرناطة) وأكثرها قسوة، فجابه دعاة الاستسلام للصليبيين بمقولته الرائعة: «وأي باعث لنا على اليأس. ان دم الأبطال من عرب الأندلس فاتحي هذه الديار يجري في عروقنا. وعندنا قوة وافرة، وجيوش معودة مجربة في الوقائع، لا نرتاب في إقدامها. ولدينا عشرون ألف شاب يمكنهم أن يدفعوا عن دورهم واسوارهم اعظم قوة واكثف جيش».

وفي ذلك أيضاً يقول مؤرخ إنكليزي: «ان هذه الحرب ـ حرب تحطيم مملكة غرناطة ـ هي حقبة عظيمة الشأن في تاريخ الدهر، بما تخللها من باهر الثبات والإصرار، فان النكبات توالت فيها على المغاربة ـ اهل الأندلس ـ مدة عشر سنوات بلا انقطاع، فأخذت مدائنهم الواحدة بعد الأخرى وفنيت رجالاتهم قتلاً وأسراً، وقاتلوا عن كل مدينة وبلدة وحصن وبرج، بل عن كل صخرة. كأنما هم ينتظرون الفتح. ولم يجدوا مكاناً تثبت فيه أقدامهم، ولا جداراً يمكنهم رمي السهام من ورائه إلا واعتصموا به ينازعون عنها كل معتد، غير طامعين في أدنى غوث، تنزل على اسوارها أمة بقضها وقضيضها، لم يزالوا يدافعون عنها، كأنما هم يترقبون معجزة يرسلها

الله في حقهم»(١)

لم تكن القضية على كل حال قضية انتظار حدوث معجزة، كما يصورها من لا يستطيعون فهم عامل الدفاع عن الدين والقدرة على الصمود في العقيدة القتالية الإسلامية. وليست ايضاً الدفاع بانتظار وصول الدعم، القضية ببساطة هي قضية طلب احدى الحسنيين (النصر أو الشهادة). فكان طلب الشهادة هو الدافع لابراز مثل هذه الظاهرة الطبيعية في مضمون (الجهاد في سبيل الله). وذلك بصرف النظر عما تحرزه هذه الشهادة من نصر او هزيمة. ولو أن النصر هو النتيجة الحتمية والمتوقعة لمثل هذا الصمود. غير أن صراع (القوى) على الساحة المحدودة، كان فوق كل تقويم فكانت الهزيمة وسقطت غرناطة. وعادت المغرب، بسهلها وجبلها، بمدنها وقراها تستقبل آلاف وملايين المسلمين الذين ضاقت عليهم الدنيا فرجعوا الى قاعدتهم القوية والصلبة في (المغرب الإسلامي).

أصبحت قصة محاكم التفتيش معروفة، ولا حاجة هنا للتعرض الى ما رافقها من احراق للمسلمين وتدمير للمساجد وتحويلها الى كنائس وانتهاك للحرمات واستعباد للنساء والاطفال. غير أن من المفيد الاشارة الى ان غرناطة وحدها كانت تضم نصف مليون مسلم. وقد أدت عمليات الارهاب الوحشية الى نزوح اهلها عنها والفرار اما الى جبل البشرات، واما الفرار الى المغرب الإسلامي. واستمرت المحنة طوال أكثر من مائة سنة (١٤٩٣- ١٦١٠م) حيث استمرت هجرة الأندلس الى المغرب والمشرق الاسلاميين. وقدر عدد الذين

---

(١) حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا- احمد توفيق المدني- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر- ١٩٧٦ ص ٤٣- ٤٤.

غادروا الأندلس خلال هذه الفترة بنحو ثلاثة ملايين. وكان عدد افراد الهجرة الأخيرة وحدها نصف مليون مسلم. هاجر معظمهم الى المغرب الاسلامي، وانتشروا في مدنه وقراه، ومنهم من تابع هجرته الى المشرق.

وكان تحت حكم المسلمين في الأندلس نحو المليونين من اليهود، هاجر منهم نحو من مليون وثمانمائة الف تفرقوا بين بلدان أفريقيا الشمالية وأقاليم الامبراطورية العثمانية. واستقر قسم كبير منهم في عاصمة الامبراطورية العثمانية وفي المدن القريبة منها.

وما ان شعرت حكومة اسبانيا بقوتها حتى حدث لها ما يحدث لكل الدول التي تنتقل من عهد الى عهد على أساس القوة العسكرية. فتوجهت الى ايطاليا. وكانت قد فرضت من قبل سيطرتها على صقليا وجنوب إيطاليا ومدينة نابولي. وارادت توسيع ممتلكاتها هناك مما أدى الى اصطدامها بفرنسا، ووقوع الحرب المعروفة باسم (حرب الستين عاماً).

كانت فرنسا خلال تلك الفترة تحت حكم (الملك شارل الثامن)[1] الذي ادعى بأن من حقه وراثة عرش (نابولي). ليس ذلك فحسب، بل انه طالب بضم (ميلانو) الى ممتلكاته. وحدثت معارك انتصرت فيها الجيش الاسبانية على الجيوش الافرنسية.

---

(١) شارل الثامن (البشوش) CHARLES. VIII. L'AFFABLE ابن لويس الحادي عشر وشارلوت اميرة سافوا (١٤٧٠-١٤٩٨) ملك فرنسا اعتباراً من سنة (١٤٨٣) بوصاية اخته آن. وبدأ عهده باقامة الاتحاد العام للاقاليم، والقضاء على الثورات، واستولى على نابولي (١٤٩٥) وقامت في ايطاليا ثورة عامة ارغمته على الانسحاب.

وكان يحكم المانيا الامبراطور (مكسيميليان دوهابسبورغ)[1] الذي كان من سياسته مناهضة التوسع الاسباني- الافرنسي في ايطاليا، لا سيما وأنه كان يعتبر بأن دوقية (ميلانو) تابعة له. وتفجر هذا الموقف عن حرب أوروبية شاملة وقفت فيها فرنسا وحدها في مجابهة اسبانيا وألمانيا، وانضمت لهما انكلترا وسويسرا وجمهورية البندقية. وعقد البابا الذي كان يشرف على محاربة الافرنسيين (يوليوس الثاني) بين كل هؤلاء ما أسموه (العصبة المقدسة) التي أمكن لها الحاق الهزيمة بفرنسا، مما زاد من قدرة اسبانيا وقوتها.

عندما توفي الامبراطور (مكسيميليان) عين الملوك والأمراء (شارل الخامس) أو (شارلكان)[2] خلفاً له. وبذلك أمكن لهذا الامبراطور جمع بلاد واسعة تحت حكمه ضمت (اسبانيا والنمسا وبلجيكا وهولندا وصقليا وسردينيا ونابولي وقسما من بلاد الجرمان -المانيا- واغلب البلاد الامريكية التي تم اكتشافها حديثاً). وأصبح باسم امبراطوريته العظمى يقف وجهاً لوجه امام فرنسا

---

(١) مكسيميليان: (MAXIMILIEN.1) (١٤٥٩- ١٥١٩) اصبح امبراطوراً للامبراطورية الجرمانية المقدسة سنة ١٤٩٣. قاد الحرب ضد الملك الافرنسي لويس الحادي عشر.

(٢) شارل الخامس: (CHARLES QUINT) - (CHARLES V DIT) ابن فيليب الجميل وجان المجنونة. (١٥٠٠- ١٥٥٨) ملك اسبانيا (١٥١٦) ملك جرمانيا (١٥١٩) بلغ من طموحه انه رغب في اقامة امبراطورية عالمية. ومن اجل ذلك خاض حرباً ضد فرانسوا الاول لمدة تزيد على الثلاثين عاماً، وانتصر في معركة بيكوك (١٥٢٢) و (بافيس ١٥٢٥) حيث اخذ الملك فرانسوا اسيراً وارغمه على توقيع معاهدة مدريد (١٥٢٦) واستولى على روما ودمرها سنة (١٥٢٧) وحاول الاستيلاء على تونس (١٥٣٥) والجزائر (١٥٤١) غير ان محاولاته باءت بالفشل.

والامبراطورية العثمانية. واستطاع ملك فرنسا (فرانسوا الأو
ان يجد في تحالفه مع العثمانيين قوة كافية تضمن له النصر على اعا

كانت النتيجة الثانية لتعاظم القدرة الاسبانية الانتقال لل
على المغرب الاسلامي، وفي الواقع فقد بدأ هذا العدوان من ة
تسقط مملكة غرناطة، وكان ذلك بهدف عزل الأندلس الاسلا
قاعدة دعمها في المغرب الإسلامي. ثم تطور ذلك بعد
المسلمين من الاندلس وفقاً لما يبرزه جدول توقيت أبرز الأ
التالي:

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٨٠٣	١٤٠٠	الاسبانيون يهاجمون تطوان (ة
٨١٨	١٤١٥	البرتغاليون يحتلون مدينة سـ
٨١٨-٨٤١	١٤١٥-١٤٣٧	البرتغاليون يحتلون المرسى ويقيمون فيه ثم يطردون مـ
٨٧٦-٨٨٢	١٤٧١-١٤٧٧	البرتغاليون يعودون لاحتلال الكبير ثم يطردون منه.
٨٩٨	١٤٩٢	**سقوط غرناطة في قبضة الا**
٩٠٧	١٥٠١	البرتغاليون يهاجمون المرسى الكبير ويفشل هجومهم.

(١) فرانسوا الأول: (FRANCOIS I) ملك فرنسا (١٤٩٤-١٥٤٧) تولى ‍
سنة (١٥١٥) بعد وفاة ابن عمه لويس الثاني عشر.

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٩١١	١٥٠٥	الاسبانيون يحتلون المرسى الكبير- الجزائر- .
٩١٣	١٥٠٧	محاولة الاسبانيين احتلال وهران التي تبعد (٨) كلم عن الجزائر وتدمير جيشهم في موقعة (مسرغين) .
٩١٥	١٩٠٩	الاسبانيون يعيدون محاولتهم ويفتحون وهران .
٩١٦	١٩١٠	الاسبانيون يحتلون بجاية (على مجرى وادي الصومام) ويحتلون عنابة وطرابلس ويفشلون في الاستيلاء على جربة والسلطان الحفصي يستنجد بالاخوين برباروس .
١٩١٧	١٩١١	الاسبانيون يستولون على (مستغانم) . ويستلمون من الجزائريين جزيرة (اسطفله) المقابلة للجزائر .

وكانت النتيجة الثالثة لتعاظم القدرة الاسبانية، ظهور عملية التوسع البحري التي أسهم فيها البحارة المسلمون بقسط وافر ولكن تحت راية البرتغاليين والاسبانيين. ومن المكتشفات البحرية التي رافقت هذه الفترة:

١ـ اكتشاف أمريكا الجنوبية والهجرة الاسبانية اليها: (٨٩٩ـ ٩١٠ هـ = ١٤٩٣ـ ١٥٠٤م).

٢ـ اكتشاف البرتغال لطريق الهند (فاسكو دي غاما): (٩٠٤ هـ = ١٤٩٨م).

٣ـ رحلات ماجلان البرتغالي: (٩٢٥ـ ٩٢٩هـ = ١٥١٩ـ ١٥٢٢م).

٤ ـ الموقف على جبهة المغرب الاسلامي

تعرض المغرب الإسلامي لمجموعة من المتحولات، منذ الأيام الأولى للفتح. وإذا كانت الموجة الأولى للفتح قد وحدت بين مراكز القوى المختلفة، إلا أن انهيار الحكم الأموي، وقيام الحكم العباسي، ثم قيام الحكم الأموي في الأندلس، قد أدى الى نوع من التمزق المؤقت الذي لم يلبث أن تمخض عن حركات اصلاحية دينية كرد على الدعوات التي أفرزتها حركة الفاطميين التي ترعرعت في المغرب الإسلامي قبل أن تنتقل الى مصر. ولعل أفضل تعبير لتلك الحركات الاصلاحية هي ظهور المرابطين ثم الموحدين (ابناء عبد المؤمن).

ولم يكن ظهور هذه الحركات وتطورها سلمياً، وإنما رافقها عنف دموي لم يلبث ان ترك رواسب عميقة كان لا بد لها من أن تتفاعل لتأخذ ابعادها في التأثير على مستقبل المغرب الإسلامي.

إذ ما كادت دولة الموحدين تضعف حتى ظهر نوع من استقلال مراكز القوى الناجم عن ضعف المركزية. فكان من أبرز مراكز القوى:

١ـ دولة بني حفص (الحفصيون) والذين جعلوا من تونس قاعدة لهم، فكانت حدود دولتهم تمتد من طرابلس حتى شرقي الجزائر- في المفهوم الحالي للحدود.

٢ـ دولة بني زيان (الزيانيون) وقد جعلوا من وسط الجزائر وغربها مقراً لهم وقاعدة لكيانهم.

٣ـ دولة بني مرين (المرينيون) وقد جعلوا من المغرب الاقصى قاعدة لهم ومستقراً.

وقد بقيت هذه الكيانات قوية، صلبة، حتى إذا ما استنزفت قدراتها في الحروب الداخلية والحروب الخارجية، وصلت الى مرحلة من الانهيار المريع الذي فتح المجال أمام مزيد من التمزق، حتى أصبحت كل مدينة وكل منطقة مستقلة بأمورها. وانعكس ذلك على زعماء هذه الكيانات والدول فلم يبق لهم من السلطة إلا اسمها. وأمام هذا الموقف ـ وكما يحدث عادة في كل التجارب التاريخية- أصبحت الأقلية الحاكمة- الاوليغاركية- على استعداد للتعاون مع أي سلطة أو قوة داخلية أو خارجية للمحافظة على وجودها، فكان في ذلك القضاء النهائي على هذا الوجود.

لقد تمت هذه التحولات بصورة بطيئة وتدريجية، على الرغم من ظهورها المباغت كتحولات عنيفة في بعض الأحيان. ويتطلب ذلك التوقف قليلاً عند بعض ظواهر هذه التحولات.

عندما انهار حكم الموحدين حاول بنو مرين (في المغرب) السيطرة على المغرب الاسلامي بكامله، فاصطدموا بقوة الحفصيين (في تونس) والذين كانوا يعتبرون أنفسهم الورثة الشرعيين للموحدين وأدى ذلك الى صدامات دامية لم تحقق الهدف المنشود في توحيد المغرب

الإسلامي. وإنما أدت الى نتيجة مضادة تماماً هي استنزاف قدرة الدولتين واضعافهما معاً. وخلال هذا الصراع المرير كان على الزيانيين (في الجزائر) دفع ثمن هذا التمزق عن طريق التناوب في الخضوع لهؤلاء واولئك تبعاً لارتفاع موازين القوى وانخفاضها. وانعكس ذلك بصورة خاصة على بني مرين (١١٩٦- ١٤٢٨م) الذين كانوا أفضل سند للأندلس الإسلامية. فانهار بذلك أقوى دعم للأندلسيين، وانتهى الأمر ببني مرين الى زوال سلطتهم وظهور فرع منهم اقتصرت سلطتهم على (مدينة سلا) ومنطقتها (هم بني وطاس).

وكان ذلك هو الموقف يوم هاجمت القوات الاسبانية مدينة تطوان (سنة ١٤٠٠ م) فأخذتها ودمرتها، وأبادت نصف سكانها وساقت الباقين من رجالها ونسائها سبايا وأسرى الى اسبانيا. في حين كان ملك المغرب (أبو سعيد عثمان المريني) يحارب مملكة بني زيان بتلمسان من أجل اخضاعها. فاحتل تلمسان وطرد ملكها (أبا زيان) ونصب مكانه (أبا محمد عبد الله). وتكرر هذا الموقف ذاته (سنة ١٤١٥) عندما قاد ملك البرتغال جيشه بنفسه فاحتل مدينة (سبتة) عندما كان (أبو سعيد عثمان ايضاً) يحارب (أبا حسون) من أجل تلمسان ذاتها من جديد.

وأدى ذلك الى الوضع الذي وصفه مؤرخ فرنسي بقوله: «**إن العائلات المالكة الحفصية والزيانية والمرينية، والتي كانت قبل ذلك تلمع لمعانا منيراً، قد انغمست في حروب طويلة مزمنة، وروت أرض هذه البلاد- المغرب العربي الاسلامي- بالدماء، ثم سقطت في مهاوي الانحطاط. فطوال قرن كامل لم يبق لامراء هذه العائلات**

المالكة من السلطة الا اسمها. وكان الملوك لا يفكرون الا في احباط المؤامرات والفتن التي يثيرها ضدهم أفراد من عائلاتهم من أجل الاستيلاء على العرش، أو في إخماد الثورات التي تقوم بها قبائل سئمت حكم العجز والطغيان. ولقد ضربت الفوضى أطنابها في كل مكان. فسكان الولايات القسنطينية، وسكان مدينة الجزائر، وأهل الشرق الوهرانسي، لم يبقوا معترفين بسلطة أحد عليهم. أما بالمغرب الأقصى، فإن أمراء عائلة بني مرين، قد اقتطع كل واحد منهم لنفسه إمارة صغيرة لم يكن في وسعه الدفاع عنها ضد مطامع جيرانه. فهذه الفوضى قد سهلت بصفة غريبة مهمة البرتغاليين والاسبانيين سواء في احتلال البلاد، أو في توسيع منطقة نفوذهم فيها»[1].

ويذكر مؤرخ آخر: «أن جاسوساً من الجواسيس الذين أرسل بهم ـ فرديناند ـ الى بلاد المغرب العربي، قد أرسل الى ملكه تقريراً مفصلاً جاء فيه: إن كامل بلاد شمال افريقيا تجتاز فترة من الانهيار النفسي، ويظهر معها أن الله قد أراد أن يجعل هذه البلاد ملكاً لصاحبي الجلالة المسيحية».

ثم يقول: «في نهاية القرن الخامس عشر كانت الفوضى السياسية والاضطرابات، وتداخل الممالك بعضها ببعض، قد بلغت في الشمال الافريقي مبلغاً لا يمكن تلخيصه في صفحات. ويصاب الانسان بنوع من الذهول وهو يتلو قائمة الممالك والامارات التي اقتسمت رقعة هذا الشمال الأفريقي. وكانت ـ وهران ـ تبدو وهي تحت السلطة الاسمية لبني زيان في صورة جمهورية تجارية حقيقية

---

(١) حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا ـ احمد توفيق المدني ـ ص ٦٧ـ ٧١.

مستقلة، أما مدينة بجاية فقد كانت في الفترة ذاتها تكتسب ثروة طائلة وبصفة مستقلة، من التجارة الواسعة التي كانت تتعاطاها مع البلاد الإيطالية ومن القرصنة. وكانت مملكة تلمسان تشمل بصفة غير محددة الغرب الجزائري، الحالي، وكان رجال الدولة قد تحرروا من السلطة المركزية، فكان ادعياء الملك لا يجدون صعوبة في جمع الأنصار لمحاربة السلطان القائم. وكان الأبناء يثورون ويخلعون آباءهم. كما كان الأبناء يحاربون بعضهم بعضا لاقتسام ملك أبيهم. وكانت هذه الفوضى ذاتها موجودة بالبلاد التونسية حيث آل أمر بني حفص الى العجز التام، فكان الملك لا يملك حق التصرف، ولا في نفس العاصمة تونس، حيث كان يحتمي بحرس من المرتزقة المسيحيين. وكان جبل الرصاص على مقربة من مدينة تونس خارجاً عن طاعة السلطة المركزية، بينما كانت أكثر القبائل التونسية مستقلة فعلاً.

على الرغم من ذلك، فقد خشي ـ فرديناند ـ أن يؤدي طرد ملك غرناطة ـ ابي عبد الله ـ الى المغرب الى رد فعل عنيف من جانب دول المغرب الإسلامي، غير ان الراهب (خمينيس) تمكن من اقناعه بأن لا خطر البتة من وراء ارسال ملك غرناطة الى المغرب لأن حالة الخلاف والشقاق المستحكمة هناك لن تسمح لأهلها بالإقدام على مثل هذا العمل. واتقاء لخطر اتحاد اسلامي موسع في أفريقيا ضد الصليبية الاسبانية فقد أرسل الملك ـ فرديناندو ـ في العام ١٥٠١، وبعد سقوط غرناطة بسنوات، وفداً الى مدينة القاهرة عاصمة دولة المماليك ـ يرأسه بطرس ماريتر دانغريرا ـ من أجل عقد معاهدة صداقة وحسن تعامل بين الاسبان ودولة المماليك التي كان يترأسها يومئذ قانصوه الغوري. وتم له ذلك.

وأثارت مشكلة السباق بين البرتغال واسبانيا لاحتلال المغرب الاسلامي صراعاً بين الدولتين كاد يؤدي الى الحرب فيما بينهما. غير ان البابا تدخل في الأمر من أجل اقتسام النفوذ في العالم (وفقا لمعاهدة تورد - سيلاس - سنة ١٤٩٥). واعقب ذلك الاتفاق على اقتسام المغرب العربي - الإسلامي (وفقا لمعاهدة فيلافرنكا - ١٥٠٩) والتي نصت على منح المغرب الأقصى للبرتغال مقابل حصول اسبانيا على المغرب الأوسط (الجزائر).

وهكذا ومع بداية القرن السادس عشر، كانت دولة البرتغال تملك في المغرب الأقصى مدن (سبتة وطنجة وأصيلا وازمور والصويرة وأسفي مع كامل مقاطعة دكالة الممتدة بين مصب نهري ام الربيعة وتنسيفت على المحيط الأطلسي).

أما الاسبان فقد ملكوا بالبلاد المغربية (صخرة باديس - فاليس - ومدينة مليلة)، وانطلق الاسبانيون لتطوير الحرب الصليبية ضد الجزائر.

ولقد تطلب الإعداد لهذه الحملة الصليبية الجديدة إعداداً طويلاً، وإمكانات كبيرة، بدأها البابا في روما الذي عمل على وضع كل الإمكانات البشرية والمادية تحت تصرف الملوك الاسبان من أجل إبعاد المسلمين عن بلاد الأندلس اولاً، ومن أجل اخضاع بلاد الشمال الأفريقي للحكم المسيحي وللدين المسيحي ثانياً. ومن أجل ذلك، أصدر البابا أمره السامي لكل المسيحيين بأن يستمروا في دفع الضريبة الصليبية (كروزادا) لملوك اسبانيا من أجل الحرب الافريقية. وجمع القساوسة والرهبان أموالاً ضخمة من أجل ذلك. بل انهم باعوا ذخائر الكنائس وكنوزها الثمينة لكي يزودوا الجيوش المسيحية بالمال والعتاد.

وعندما توفيت الملكة (ايزابيللا) تركت وصية (طلبت فيها لمن يتولون الملك بعدها بأن يحققوا الأمنية الغالية على قلبها، والتي كانت تود ولو أنها قد حققتها بنفسها لو طال بها الأجل، الا وهي فتح افريقيا وعدم الكف عن القتال في سبيل الدين ضد الكفار- الذين هم المسلمون؟).

وعندما جهزت اسبانيا تحت ضغط الكنيسة واستفزازات الراهب (خمينيس) جيشها واسطولها لغزو المغرب العربي- الاسلامي، بادر البابا بنشر قرار يعطي به الولاية الملكي اسبانيا على كامل الارض التي يفتحانها بهذا المغرب. وكان نفس البابا (اسكندر السادس- بورجيا الشهير)[1] قد أصدر سنة ١٤٩٤، عهداً يبارك به الصليبية الاسبانية بأفريقية.

لم تحدث عمليات الاحتلال، رغم كل التمزق والتشتت، ورغم الاطار العام الذي احاط عملية الغزو، لم تحدث بدون مقاومة باسلة من قبل الشعب المسلم في المغرب وقد يكون من الأفضل استقراء بعض ملامح الصراع خلال هذه المرحلة لأنها توضح أسباب التطورات في المرحلة التالية.

عندما اتم فرديناند ملك اسبانيا تجهيز الحملة، وهي الحملة التي مول اسطولها الكاردينال الوزير -خمينيس- بأمواله الخاصة وبما قدمته له الكنيسة من الأموال، توجه الأسطول للغزو، فغادر مالقة يوم

---

(١) اسكندر الرابع- بورجيا: (ALEXANDRE VI BORGIA) من مواليد جاتيفا JATIVA في اسبانيا في سنة ١٤٣١، أصبح (بابا) من سنة ١٤٩٢ حتى سنة ١٥٠٣ م وقد مارس دوراً سياسياً كبيراً حتى اطلق عليه انه أمير اكثر منه بابا أو رجل دين- اشتهر بقسوته في تنظيم الحرب ضد المسلمين.

٢٩ آب ـ أغسطس ـ ١٥٠٥ ،تحت قيادة (دون رايموند دي قرطبة) وكان الاسطول ينقل معه قوة من (٥) الاف رجل (بقيادة دون ديتوفر فرنانديز دي قرطبة). ووصل هذا الاسطول الى المرسى الكبير يوم ١١ـ أيلول ـ سبتمبر ـ وأحكم الحصار على المدينة لمدة خمسين يوماً، وكانت الاشتباكات خلال هذه الفترة مستمرة. وكانت السفن الاسبانية تضع على مقدماتها أكياس الصوف حتى لا تصيبها قذائف المسلمين. وقد تبادلت منذ اقترابها من الساحل طلقات المدفعية النارية. غير أن دوي تلك الطلقات كان أكبر من مفعولها. وعندما بدأ الاسبانيون عملية الانزال، قاومهم المسلمون مقاومة يائسة عنيفة، وأظهروا شجاعة كبيرة وحماسة ضارية، غير أن المدفعية الاسبانية أرغمتهم على ترك مواقعهم والانسحاب الى الداخل. ورافقت عملية الانزال عاصفة قوية وأمطار غزيرة، لكن ذلك لم يضعف المقاومة التي استمرت تجاهد صابرة حتى منتصف الليل، ثم استؤنفت المعركة من الغد، وكان يوم جمعة، واستمرت عنيفة قاسية طوال النهار. ثم ازدادت شدة وعنفاً عندما جاء المجاهدون من الداخل، بعدما بلغهم نبأ نزول الاسبان في حمِّة جنونية، بينما كانت مدفعية الحصون الاسلامية ترمي الأسطول الاسباني بقذائف من الحجارة تزن أربعين رطلاً. واستمرت المعركة الى الليل رغم استشهاد قائد الموقع الذي أصابته قذيفة مدفع اسباني. وأثناء الليل تشاور المسلمون فيما بينهم ـفي اجتماع عقدوه في دار المزوارـ وكانت الأغلبية تميل الى متابعة الجهاد في حين كانت الأقلية ترغب في الاستسلام وحجتها، انه من المحال على الحامية التي لا تزيد في الأصل عن خمسمائة مجاهد التغلب على قوة خمسة آلاف مقاتل اسباني. وبالاضافة الى ذلك فان انتصار الاسبان يعني استباحة المدينة وأهلها. وفي النهاية انتصر المعتدلون

وتقرر مفاوضة القائد الاسباني على شروط التسليم. ولم تفلح حماسة الشاب المجاهد (موسى بن علي) بإثارة مشاعر الناس وحضهم على متابعة القتال.

وافق القائد الاسباني على انسحاب المسلمين من المدينة، وحدد لهم فترة ثلاث ساعات من اجل الجلاء عن المدينة وبقية الحصون، واشترط عليهم ان لا يأخذوا معهم أي شيء من الزاد والمؤن، ولا من حيوانات الجر، ولا من الأسلحة. واخلى المسلمون أول الأمر النساء، ثم تبعهم الرجال، وعندما تم انسحاب المسلمين في الفترة المحددة من التاسعة صباحاً الى الظهر، اقتحم الاسبان المدينة، ورفعوا فوقها أعلامهم. وتوجه المركيز القائد الاعلى الى مسجد المدينة الاعظم، فأمر بتحويله الى كنيسة للنصارى فوراً. وكرسه وباركه واطلق عليه اسم (كنيسة القديس ميكائيل). واقيم به القداس صبيحة الاربعاء ١٥ تموز- يوليو.

وانصرف الاسبان على الفور لتحصين المدينة. وعندما وصل المجاهدون وجيش تلمسان في صباح يوم السبت، وكان عددهم (٢٢) ألفاً من المشاة والفين من الفرسان، كانت الحامية الاسبانية قد تمركزت بقوة في المدينة، وحاولت قوة من الفرسان اقتحام المدينة غير ان الحامية الاسبانية احبطت هذه المحاولةالتي وصفها أحد شهود المعركة بقوله: «لم أر في حياتي اطلاقاً ابدع من هذه الفرقة المؤلفة من ثلاثمائة من الفرسان العرب التي كان يقودها- القائد ابن دالي- ولا أرهف سلاحاً، سواء من حيث خيولها المطهمة البالغة منتهى الجمال، أو من حيث ذلك الجهاز الفاخر المطرز الذي كان يكسوها».

وما كاد خبر الاستيلاء على المرسى الكبير يصل اسبانيا، حتى

اجتاحتها موجة من الفرح والابتهاج، واعلن فيها العيد لمدة اسبوع، وعملت الحامية الاسبانية (بالمرسى الكبير) على فتح سوق تجاري الى جانب المدينة بهدف تأمين متطلبات الحامية من جهة، ولإقامة علاقات مع السكان من جهة أخرى. واغدقت الحامية الذهب والفضة على المتعاونين معها من التجار. غير أن جماعة المسلمين اعتبرت اولئك المتعاونين خونة مارقين، وعاملتهم معاملة الأعداء. وأخذت توالي إغاراتها عليهم.

ثم اخذت القيادة الاسبانية في الاعداد للمرحلة الثانية من التوسع. ونظم قائد حامية المرسى الكبير (فرناندیز دي قرطبة) حملة بهدف الهجوم على (مسرغين) بإغارة مباغتة. وكانت هذه المدينة تبعد عن المرسى الكبير مسافة ثلاث مراحل. ويصل بينهما طريق سهلي يمر من تحت حصون مدينة (وهران الاسلامية). وكان اتباع هذا الطريق خطراً لأن حامية وهران سترد الجيش الاسباني وستتصدى لمقاومته، ولهذا قرر اتباع الطرق الجبلية والاودية، وجند لقيادة الحملة أدلاء استأجرهم بالمال - من رجال قبيلة جيزة - التي كانت تنتشر حول المرسى الكبير ووهران، فاتخذ من بينهم أدلاء وحرساً من المرتزقين. وغادرت هذه الحملة (المرسى الكبير) في يوم ٦ حزيران (يونيو) وبدأت تحركها في الساعة (٢١) ليلاً. وقد ضمت هذه الحملة القوة الاسبانية بكاملها تقريباً بحيث لم يترك في المرسى الكبير الا العدد الضروري لحماية المدينة وأسوارها. ودخلت الحملة في الشعاب الجبلية خلف الادلة وهي تسير بالرتل الاحادي- على الطريقة المعروفة بالسلك الهندي- وكانت المسيرة شاقة، زاد من متاعبها حرص أفراد الحملة على تجنب إثارة أي صخب أو ضجيج. ووصلت الحملة الى هدفها مع

الفجر، واحاطت بدوار العرب المسلمين. وباغتته بالهجوم من كل جهاته. وذهل العرب لأول وهلة، غير انهم استعادوا بسرعة ثباتهم، وقابلوا الهجوم بمقاومة عنيفة، وقاتلوا بعناد وشراسة، غير ان القوات الاسبانية افادت من عاملي المباغتة والمبادأة فدمرت المقاومة بسرعة، فاستشهد المجاهدون المسلمون وهم يحملون سلاحهم، وسيق بقية الرجال والنساء والاطفال الى الأسر، واستخدم الاسبان كل ما وجدوه من الخيول وعربات الجر لحمل الغنائم، ونظموا سيرهم، واخذوا يعبرون المسالك الجبلية على طريق العودة.

واثناء ذلك كان بعض الرجال قد افلتوا من المعركة وذهبوا لاستنفار القرى المجاورة. واسرع المجاهدون (من الدواوير القريبة) لنجدة اخوانهم - الغرابة - وهم لا يبغون من الدنيا الا انقاذهم من الأسر والهوان، وليصونوا شرف النساء الحرائر من العربيات خوفاً من ان يلحق بهن العار. ولم تمض الا ساعة من نهار، حتى احدق المجاهدون بالقافلة الاسبانية التي كانت تدفع امامها غنائمها وأسلابها وأسراها.

والتحمت بين الجانبين معركة قاسية عنيفة، وكان الضباب يغطي ميدان المعركة، فلم يتمكن الاسبان من استعمال اسلحتهم، ولم يتمكنوا من رؤية اعدائهم. وقد ادخلت صيحات العرب الوحشية الفزع والهلع الى قلوبهم، فاختل نظامهم وفقدوا الأمل في النجاة. واثناء ذلك، كانت أنباء الاغارة الوحشية قد وصلت الى مدينة (وهران). فبادر حاكم المدينة الى دفع قواته لنجدة المجاهدين. ووصل الجيش الى ميدان المعركة المتسع عبر الفجاج العميقة والشعاب الجبلية. فارتفعت اصوات التهليل والتكبير من كل جانب. واستبشر

المجاهدون بهذه النجدة القوية، فتزايدت حماستهم، وانقضوا على المقدمة التي تضم الغنائم والأسرى ـ والتي يقودها خونة جيزة ـ فقضت عليهم قضاء مبرماً، وفكت قيود الأسرى من رجال ونساء، واسترجعت كل الغنائم والأسلاب. فازداد بذلك رعب الاسبان وانهيارهم. وانهال عليهم المجاهدون في سبيل الله من كل جانب، يعملون في رقابهم السيف، فكادوا يقتلون عن آخرهم، لولا ان منادياً من أهل الأندلس ـ المدجنين ـ الذين خضعوا لاسبانيا وتنصروا، نادى المسلمين باللغة العربية: «ان إأسروهم ولا تقتلوهم، فانكم ستكسبون مالاً كثيراً عندما يبعث لكم أهلهم بفديتهم». وهكذا مال بعض المسلمين عن قتل الاسبان الى أسرهم، فأسروا بعض المئات. وسقط من القوة الاسبانية ثلاثة آلاف قتيل.

وقد استطاع قائد الحملة الاسبانية النجاة بنفسه مع قوة صغيرة، بعد أن بذل جهداً كبيراً حتى وصل الى المرسى الكبير، وأمضى بضعة ايام، توجه بعدها الى اسبانيا لتقديم تقريره. وارسلت الحكومة الاسبانية على اثر ذلك دعماً عاجلاً لحامية المرسى الكبير يضم خمسمائة محارب. وبذلك انتهت معركة (مسرغين) التي بدأت يوم ٦ حزيران (يونيو) ١٥٠٧ م.

أ ـ اعداء الداخل (في تنيس)

عرفت الادارة الاسبانية انه لا قبل لها بفرض سيطرتها عن طريق القوة الغاشمة وحدها، فاخذت في العمل لاستخدام الوسيلة (التكميلية) عن طريق استثمار التناقضات الداخلية، والاستعانة بأعداء الداخل من الخونة. وتم للإدارة الاسبانية ذلك عندما أمكن لها توطيد علاقاتها مع الاعراب المحيطين (بالمرسى الكبير) والذي اطلق

عليهم المسلمون اسم (المغطسين)[1].

وزاد الأمر سوءاً عندما وصلت الخيانة الى مستوى الحكم. فقد تولى عرش بني زيان (في سنة ٩٠٩ هـ = ١٥٠٣ م) السلطان (أبو زيان الثالث) الملقب (بالمسعود). لكن عمه (أبا حمو) ثار عليه، واخذ منه العرش وسجنه، وهنا تدخلت الإدارة الاسبانية لاستثمار هذا الموقف. فدعمت (يحيى الثابتي) شقيق الملك المخلوع السجين (أبـي زيان السعيد) ودفعته للثورة على عمه. وأمكن له احتلال (تنيس) بحراب الاسبانيين ودعمهم. وجهز (أبو حمو الثالث) جيشه لقتال ابن اخيه (بتنيس)؛ ودارت بين الطرفين معارك طاحنة، لم تحقق لأحدهما الظفر على الآخر، وبقي (أبو حمو) بتلمسان، و (يحيى الثابتي في تنيس).

ب- وهران بعد المرسى الكبير:

كان الكاردينال الاسبانـي (خمينيـس) يتابع هذه الفترة تجهيز حملته الكبرى للقضاء على المسلمين في المغرب، وما ان اكمل استعداداته حتى ابحر من مرسى قرطاجنة الاسبانـي في يوم (١٦ أيار- مايو- ١٥٠٩) وهو يدفع قوة من (١٥) ألف مقاتل بقيادة (بطرس النافاري) ووصلت هذه الحملة الى المرسى الكبير في اليوم التالي. ونزلت الى البر دون أدنى عائق. وكان (حاكم المرسى الكبير) قد اتخذ كل الاستعدادات لمساعدة هذه الحملة، لا من أجل النزول في المرسى فحسب، وانما أيضاً من أجل بلوغ هدفها في (وهران) وذلك عندما تمكن من شراء ذمة قابض المكوس العام لمدينة وهران (اليهودي

---

(١) المغطسين: (MOGATEZES) وهي مقابلة للكلمة التي اطلقها المسلمون في الجزائر على الخونة المتعاونين مع الاستعمار الافرنسي فيما بعد والتي عرفت (بالبيا عين).

اشطورا)[1] من أجل مساعدة قوات الحملة الاسبانية على احتلال مدينة (وهران).

واستعد المجاهدون في وهران للقاء قوات العدو، واصطدموا بهذه القوات في ظاهر المدينة غير ان تفوق الاسبانيين بالقوى ارغمهم على العودة الى المدينة للإفادة من تحصيناتها. وبينما كان المسلمون على الأسوار، كانت القوات الاسبانية تتجمع امام أحد الابواب الذي لم يلبث الخونة ان فتحوه فتدفقت جموع المقاتلين كالسيل الجارف تجتاح كل من يعترضها. وانسحب المجاهدون من الاسوار والابراج للدفاع عن منازلهم، فيما كانت بقية القوة الاسبانية تتدفق من كل أبواب المدينة. ودارت مذبحة رهيبة سقط فيها أكثر من اربعة آلاف مسلم ومسلمة.

وعلى الرغم من ذلك استمرت فلول المجاهدين في مقاومتها لمدة خمسة ايام (حول المسجد الاعظم في حي الفقيه). ولم تتوقف المقاومة حتى قضي على المجاهدين، وانطلقت القوات الاسبانية تقتل وتأسر وتستبيح وتنتهب وتنتهك المحرمات - على مشهد من الكاردينال خمينيس - وبمباركته. وزاد عدد الأسرى الذين استعبدهم الاسبان عن

---

(١) كان هذا اليهودي - اشطورا - من مهاجري الاندلس، ومن الذين انقذتهم عدالة الاسلام - والمسلمون في وهران بالذات - من المحارق الاسبانية. واستخدمه حاكم وهران قابضاً عاماً للمكوس في وهران. فخان المسلمين لقاء ما قدمه له حاكم (المرسى الكبير) من الاموال الضخمة والتي ساعدته على شراء ضمير القائد الخائن عيسى العريبي والقائد الخائن ابن قانص، اللذين ساعداه على فتح ابواب وهران امام جحافل الغزاة الاسبان، والذين كافؤوه بعد ذلك بتعيينه لجباية الخراجات البرية والبحرية وتوارثها عنه بنوه (من سنة ٩١٥ - الى سنة ٩٨٠) حتى ثار عليه النصارى لجوره وظلمه وفسوقه فطردوه من البلاد. (حرب الثلاثمائة سنة ص ١١١ و ١١٦).

ثمانية آلاف، ونهب رجال الحملة ما قدرت قيمته بـ (٤٨) مليون دينار جزائري اقتسمها الجنود. وكان نصيب الكاردينال الموفر من الغنيمة وفيراً، وقد اتجه على الفور لاداء واجبه المقدس، وذلك بتحويل مساجد وهران الى كنائس، وجعل المسجد الأعظم كاتدرائية (وكتب لمدينة وهران بعد ذلك، ان تبقى تحت ربقة الاستعمار الاسباني حتى سنة ١٧٩٢).

وقد نتج عن انتصار الاسبانيين في وهران مجموعة من التحولات أبرزها:

١ ـ خضوع بني زيان للاسبانيين، واعتراف (أبو حمو الثالث) بتبعيته وخضوعه للحكم الاسباني وتقديم جزية سنوية مقدارها اثنا عشر الف دوقة ذهبية (ما يعادل ٢٨٨ الف دينار جزائري).

٢ ـ خضوع رجال قبائل (بني عامر) وغيرهم من الأعراب الواقعين ضمن دائرة وهران الاسبانية للحكم الاسباني، واصبحوا له أعواناً وجنوداً وعيوناً.

ج ـ احتلال بجاية:

تقع بجاية على مجرى وادي الصومام الذي يخترق الجبائل القبائلية عند مدينة (أقبو) ونظراً لأهمية موقعها، وللمكانة الدينية التي كانت تحتلها فقد كانت الهدف التالي للكاردينال (خمينيس) الذي أمضى وقتاً بالاستعداد لنقل ثقل الهجوم من اتجاه المغرب الى اتجاه المشرق.

وبدأت عملية احتلال بجاية بمناورة خداعية، إذ ركب الجيش الاسباني السفن وغادر المرسى الكبير يوم ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر)

١٥٠٩ . حتى اذا ما وصل الى جزر (الباليئار) وصلته قوة دعم اضافية . ثم اقلع الاسطول الاسباني من جزر الباليئار بقوة (٢٠) سفينة كبيرة تحمل (١٠) آلاف مقاتل، مدعمة بالمدفعية الضخمة وآلات الحصار. ووصلت قوات هذه الحملة الى مدينة بجاية يوم ٥ كانون الثاني (يناير) ١٥١٠ . وبدأت المعركة على الفور بتبادل نيران المدفعية بين حامية بجاية والاسطول الاسباني . وتسلق المجاهدون مرتفعات جبال (التورايا) . بهدف منع الاسبانيين من النزول الى البر. غير ان مدفعية السفن البحرية المتفوقة ساعدت على انزال القوات. واسرع أهل بجاية باخلاء المدينة من النساء والاطفال، وتم ارسالهم الى (جيجل) فيما احتلت بقية القوات مواقعها في المدينة للدفاع عنها.

قسم قائد الحملة (بدرو نافرو) قواته الى فرقتين: واجب الفرقة الاولى مجابهة قوة المجاهدين في جبال (التورايا)، وواجب الفرقة الثانية الانقضاض على (بجاية) واقتحامها . ودارت معارك دامية أسفرت عن انتصار الاسبانيين وإبادتهم لأكثر من أربعة آلاف مسلم . وتدميرهم للمدينة دماراً تاماً تقريباً، والقضاء على كل المعالم العمرانية والدينية والأثرية في المدينة.

وأدى الانتصار المباشر للاسبانيين على حامية بجاية الى تحقيق مجموعة من الانتصارات غير المباشرة والتي حصلت فيها اسبانيا على (غنائم) تزيد في حجمها وأهميتها على نتائج الانتصار المباشر، لا سيما وان هذه الانتصارات غير المباشرة قد حدثت بدون صدام، وبدون اهراق قطرة دم واحدة، وكان من بين هذه الانتصارات ـ غير المباشرة ـ

١ ـ خضوع السلطان الحفصي بتونس (ابو عبد الله عم المتوكل) للسلطات الاسبانية، وقبوله بدفع الجزية.

٢ ـ خضوع الجزائر التي اصبحت مطوقة من الشرق ومن الغرب (بجاية ووهران)، وتعهد حاكمها (الشيخ سالم بن التومي) بدفع الجزية، وموافقة اهلها على تسليم جزيرة (اسطفلة) المقابلة للجزائر من اجل اقامة قاعدة بحرية اسبانية.

د ـ أعداء الداخل للمرة الثانية:

أفاد (الملك عبد الله) ملك بجاية الشرعي المخلوع، والذي أصاب السجن بصره، من الفوضى والاضطراب اللذان رافقا اجتياح القوات الاسبانية لمدينة (بجاية) فهرب من سجنه بمساعدة بعض أنصاره الذين رافقوه الى حيث تجمعت فئة من مؤيديه. ولم يلبث ان توجه بوفد من الأعراب لمقابلة القائد الاسباني (بيدرو النافاري). وقد عمل هذا على تقديم المساعدة الطبية (شق الاهداب) فعاد الملك عبد الله وقد اصبح قادراً على الرؤية. واعلن الولاء لاسبانيا والخضوع لها والعمل تحت رايتها. وقرر (بيدرو) الافادة من هذا الملك، فجهز له حملة انضم اليها بعض انصار (الملك عبد الله). وسار بهم (بيدرو) يوم ١٣ نيسان (ابريل) مغادراً بجاية الى حيث مقر (عبد الرحمن) ودارت معركة رهيبة قتل فيها عدد كبير من أنصار عبد الرحمن بمن فيهم زوجته وابنته، وغنم (بيدرو) غنائم كبيرة. وتمكن (عبد الرحمن) النجاة من المعركة ومعه عدد قليل من أنصاره. وكان (بيدرو) قد كتب الى الملك (فرديناند) يستشيره في تعيين (الملك عبد الله) ملكاً على بجاية. غير ان نجاة (عبد الرحمن) واستمراره في المقاومة حمل (بيدرو) على تعديل مخططه للافادة من (الملكين معاً) فتم الاتفاق بين (فرناندو) و (عبد الرحمن) ملك جبال البربر و(عبد الله) ملك بجاية على تقسيم مناطق النفوذ، وممارسة الحكم تحت الاشراف الاسباني. مع تقديم كل ما

تطلبه الادارة الاسبانية من المساعدات[1].

وأصبح الملك الاسباني (فرديناندو) بعد هذا النصر، اكثر ثقة بالقدرة على تنفيذ مخططاته، فانطلق يعلن بوضوح عن أهدافه بضرورة تطوير الحرب الصليبية. ويؤكد عزمه على مطاردة الكفار (المسلمين) الى أن ينتزع من بين أيديهم بيت المقدس. ثم اعلن بحماسة أنه سيتولى بنفسه قيادة جيش لفتح أفريقيا. وأن يضع يده في يد فرسان جزيرة رودس من اجل الاستيلاء على مصر.

غير أن الأمور لم تتوافق في مسيرتها مع ما طمع به (فرناندو). فقد انطلق الشعب في المغرب الاسلامي الى تنظيم المقاومة. واستخدم الاسبان أبشع أنواع الابادة. غير ان هذه الوحشية لم تقابل من المجاهدين في سبيل الله الا بالمزيد من التصميم والعناد. وعلى سبيل المثال، فقد رفض (سكان زواوة) من رجال القبائل الأشداء الخضوع لسلطة الملك عبد الرحمن. وتنادوا بوجوب الجهاد ضد المحتل الغاصب، واعترفوا بإمارة الامير أبي بكر الذي كان يحكم قسنطينة باسم الحفصيين. واخذوا يوحدون صفوفهم. والتف حولهم المجاهدون من أهل التل ومن سكان الهضاب العليا. واتخذ الامير أبو بكر مقراً لقيادته بلدة زيانية. واخذ ينظم الاغارات باستمرار لازعاج الاسبانيين الذين عملوا بالمقابل على توسيع (بقعة الزيت) باستيلائهم على (عنابة) سنة ١٥١٠. غير ان عملية التوسع اصطدمت بمقاومة طرابلس الضارية (والتي كانت تحت حكم الحفصيين). ولم تتم عملية احتلال (طرابلس) الا بعد جهد كبير، والقضاء على المجاهدين.

---

(١) انظر الملحق رقم ١ـ في نهاية الكتاب والمتعلق بنص المعاهدة.

وعندما حاول (بدرو نفارو) الاستيلاء على (جزيرة جربة) حدثت معارك ضارية اعجزت القوات الاسبانية، وتكررت هذه الظاهرة عند (قرقنة)، وبذلك وصل المد الاسباني نهايته.

ووجد أهل (مستغانم وتمزغران) انه لم يعد باستطاعتهم البقاء في حالة عزلة بعد ان سيطرت القوات الاسبانية على الساحل بكامله، فقام قائد ومرابطي وشيوخ مستغانم وتمزغران ـ مازغران ـ بعقد معاهدة صلح مع (فرنانديز دي قرطبة).

وفي خلال هذه الفترة حدث تطور في أقصى المغرب، فقد استطاع الاشراف السعديون إعادة تنظيم أمورهم (في سنة ٩١٦ هـ = ١٥٠٩ م) وتولى قيادتهم الشريف أبي عبد الله القائم وولديه أبي العباس أحمد الاعرج ومحمد المهدي. وأمكن لهم بذلك تحويل الموقف في اقصى المغرب الاسلامي، مما ترك اثره على مسيرة الاحداث التالية لذلك.

٥ ـ الجهاد في البحر والقرصنة

عرف (ذو ي اللحى الشقراء) بأنهم قراصنة ـ ويتطلب ذلك في الواقع التوقف قليلاً عند كلمة (القرصنة والقراصنة). فمن المعروف أن الصراع في البحر والإغارة على المدن الساحلية هو أمر قديم جداً، قدم ظهور البحرية ذاتها. فكانت الدول البحرية تمارس عملها بهدف النهب والسلب بالدرجة الأولى، نظراً لعدم الحاجة الكبرى للقدرة البشرية. وبقي البحر الابيض المتوسط هو المسرح الأول للصراع بين الحضارات المختلفة بداية من المكدونيين والفينيقيين ونهاية بالرومانيين.

وعندما اقتحم العرب المسلمون هذا المجال، لم تكن بهم حاجة لممارسة القرصنة، إذ انهم استطاعوا فرض سيطرتهم على البحر، لا ينازعهم فيه منازع. وكانت الهجمات البحرية على سواحل القسم الشمالي من البحر الابيض المتوسط تهدف الى تأمين الفتوحات الاسلامية، فكانت ملتحمة بمفهوم الجهاد في سبيل الله.

غير ان شعوبا اخرى اضطلعت باعمال القرصنة، وأبرزها شعب النورمان ـ الفايكنج ـ[1] الذي أغارت قوة منه في عهد الامير

---

(١) الفايكنج: (VIKINGS)شعب اسكنديناڤي مارس اعمال القرصنة والسلب=

الاموي عبد الرحمن بن الحكم على الاندلس بما وصفته المصادر الاندلسية كالتالي: «وفي أيامه ظهر المجوس الارومانيين ـ النورمان ـ ودخلوا اشبيليا. فأرسل اليهم عبد الرحمن العساكر مع القواد من قرطبة، فنزل المجوس من مراكبهم، وقاتلهم المسلمون فهزموهم بعد مقام صعب. ثم جاءت العساكر مدداً من قرطبة، فقاتلهم المجوس. فهزمهم المسلمون وغنموا بعض مراكبهم وأحرقوها. ورحل المجوس الى شذونة، فأقاموا عليها يومين، وغنموا بعض الشيء. ووصلت مراكب عبد الرحمن الى اشبيلية، فأقلع المجوس الى لبلة، وأغاروا وسبوا، ثم الى باجة ثم الى أشبونة، ثم انقطع خبرهم حين اقلعوا من اشبونة وسكنت البلاد وذلك سنة ٢٣٠ هـ = ٨٤٤ م[١].

تكررت العملية ذاتها في عهد الحكم المستنصر: «حيث ظهرت في سنة ٢٥٤ هـ = ٨٦٨ م مراكب المجوس في البحر الكبير ـ المحيط الاطلسي ـ وأفسدوا بسائط اشبونة، وناشبهم الناس القتال، فرجعوا الى مراكبهم. وأخرج الحكم القواد لاحتراس السواحل، وأمر قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس بتعجيل حركة الاسطول. ثم وردت الاخبار بأن العساكر نالت منهم في كل جهة من السواحل».

وتطور مفهوم القرصنة عبر العصور الى نوعين متمايزين، أولهما القرصنة القائمة على السلب والنهب[٢] والقرصنة التي تعتبر نوعاً من

=طوال القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وروع المدن الاوروبية كلها. واغار مرات على المدن الاندلسية الاسلامية.

(١) فتح الطيب ـ المقري التلمساني ـ دار صادر بيروت ١/٣٤٥ ـ ٣٤٦.

(٢) ويطلق الافرنسيون على هؤلاء اسم PIRATERIE.

الحروب البحرية- الدفاعية- وهدفها ضرب اقتصاديات العدو[1] وقد شهدت الحروب الصليبية في المشرق النوعين معاً. وكثيراً ما دعمت الدول (وبصورة خاصة انكلترا) النوعين معاً، حيث مضى البحارة الانكليز- في عهد (الملكة اليزابيت)[2] لممارسة كافة أنواع القرصنة. ويذكر ان السبب في ذلك يعود الى ركود التجارة الانكليزية، واصابة الاسطول بحالة من العطالة، بالاضافة الى وجود آلاف البحارة بدون عمل. في حين كانت السفن الاسبانية تسير مثقلة بالثروات والكنوز وهي تمخر عباب البحر.

وسرعان ما راجت اعمال القراصنة الانكليز لا في البحر وحده، وانما بالهجوم على المدن الساحلية الاسبانية- وبصورة خاصة على سواحل امريكا الاسبانية، واشتهر بصورة خاصة القرصان (فرنسيس دريك) الذي قام بجولة حول العالم. وعندما عاد الى انكلترا محملاً بالغنائم، طالب السفير الاسباني بمعاقبته، وكان رد الملكة اليزابيت أن قامت بزيارة دريك على سطح سفينته (الكلب الذهبي) ومنحته لقب فارس.

وارتبطت بعد ذلك اعمال القرصنة بتجارة الرقيق نتيجة تعاظم الحاجة للقدرة البشرية (بسبب اكتشاف امريكا). وهيمنت اسبانيا على القرصنة وتجارة الرقيق فلم تسمح لانكلترا بارسال اكثر من سفينة واحدة في العام الى امريكا، وعندما اندلعت حرب الوراثة الاسبانية

---

(١) ويتميز هؤلاء بما يطلق عليهم اسم COURSE

(٢) الملكة اليزابيت: (ELISABETH 1) ملكة انكلترا ومن مواليد غرينويتش. (١٥٣٣- ١٦٠٣ م) وهي ابنة هنري الثامن. اشتهرت بحزمها ودعمها للبروتستانتية. وبدعمها للأدباء والفنانين والتجارة والاستعمار. لم تتزوج، وبها انتهى فرع تيودور TUDORS

(١٧١٢- ١٧١٤) انصرف هم انكلترا الى السيطرة على ما وراء البحار، وجردت فرنسا من ممتلكاتها، ودمرت ونهبت الاسطول الاسباني في مرات متتالية. وعندما انتهى الصراع بمعاهدة (اوتريخت ـ و ـ راستات) تضمنت المعاهدة فقرة خاصة (بمنح انكلترا امتيازاً لمدة ثلاثين سنة باحتكار تجارة الرقيق بين اسبانيا وأمريكا).

قد يكون من التجني على الملكة الانكليزية (اليزابيت) اتهامها بأنها أول من شجع تجارة الرقيق ذلك أن هذه التجارة قديمة قدم التاريخ. غير أن مجالها كان محصوراً في أفق الحروب، فللمنتصر المجد وأكاليل الغار وللمهزوم الذل والعبودية والرق. ومن هنا نشأت اسواق النخاسة.

وجاء الاسلام فلم يحرم الرق، وانما أفسح المجال لإعتاق الارقاء، ومنحهم حرياتهم ومساواتهم بالمعاملة. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم أول من سن القدوة فأعتق عبيده. وكان المسلمون في فتوحاتهم يتجنبون الحصول على الأرقاء، ويفادونهم، غير أن الحروب الصليبية، وما لقيه المسلمون فيها على كل الجبهات، دفعتهم الى المعاملة بالمثل؛ (فكان عدد الأسرى الأرقاء من الفرنج في القاهرة ـ أيام الملك العادل ـ يزيد على عدد جيش الافرنج في الشام).

وعندما انتهت الحروب الصليبية في المشرق، شهدت تجارة الرقيق نوعاً من الجمود حتى بعثها من جديد ملوك الغرب الذين شجعوا استرقاق المسلمين، كوسيلة من جملة وسائل الحرب الصليبية الشاملة. ويذكر هنا ما أقدم عليه الملك (شارل الخامس) أو (شارلكان) الذي اقام جماعة اوروبية في جزيرة مالطا جلهم من الافرنسيين المتعصبين للديانة المسيحية (وهم فرسان سان جاك الذين

عرفوا فيها بعد باسم فرسان مالطا. وكانوا من قبل في جزيرة رودس قبل أن يحتلها الاتراك سنة ١٥٢٢)؛ وكلفهم بمطاردة المسلمين أينما وجدوا في البر والبحر وبيعهم الى الاوروبيين.

وفي الوقت ذاته، انطلقت البرتغال في تشجيع تجارة الرقيق. وبدأت منذ سنة ١٥١٣ م بشراء العبيد واقتناص الزنوج من افريقية المسلمة ونقلهم الى المستعمرات الاوروبية في العالم الجديد، والى المستعمرات الاسبانية. وتقدم عدد من تجار الرقيق الى الكاهن (خمينيس) للحصول على رخصة تحلل تجارة الرقيق، بحجة تعمير جزر الأنتيل التي اباد الاستعمار الاسباني سكانها الأصليين. غير ان الكنيسة عارضت اقتناص الاحرار ثم بيعهم عبيداً. ولكن تأثير الكنيسة بقي معدوماً فيها يتعارض مع أمور الدنيا، فمضى المغامرون الأوروبيون في استثمار هذه التجارة الرابحة.

وفي سنة ١٥١٧، منح ملك الغرب (شارلكان) رخصة احتكار تجارة الرقيق الى (بريزا) الذي نقل خلال فترة وجيزة اكثر من (٤) آلاف عبد افريقي الى العالم الجديد. ودرت هذه التجارة ربحاً خيالياً سمع به عدد من التجار الاوروبيين الذين طلبوا من حكوماتهم رخصاً مماثلة لمباشرة هذه الحرفة. وأذنت فرنسا في عهد لويس الثالث عشر (١٦٠١- ١٦٤٣ م) بممارسة هذه التجارة. وتبعتها بقية الدول الاوروبية، فنشطت بذلك تجارة الرقيق التي أصبحت شرعية وشائعة لدى الدول الاوروبية، وهي منظمة بمراسيم حكومية وقوانين معروفة.

ونظراً لما كانت القرصنة تدره من أرباح، فقد حول التجار الاوروبيون كل من وقع في قبضتهم من سكان افريقية الزنجية أو

افريقية البيضاء الى عبيد. وأدت هذه الحرفة الى نقل ما يقرب من ثلاثين مليون افريقي الى العالم الجديد، وتسخيرهم في الأعمال الشاقة. إذ على اكتاف الأفارقة قام التطور الاقتصادي لأمريكا الشمالية، وعمرت أمريكا الوسطى والجنوبية. وبالأسارى المسلمين، كانت تشق بعض السفن المسيحية عباب البحر. ويعترف الأب دان في مفاوضاته مع الباشا بأن عدداً كبيراً من الأسارى الجزائريين مسجونين في فرنسا منهم (٦٨) تركياً في مرسيليا وحدها.

ولم يكن المسلمون في المغرب الاسلامي بمعزل عما كانت تدره النخاسة على تجارة الاوروبيين. لذلك وجهوا اقتصاد مدينة الجزائر نحو تجارة الرقيق- والعبيد المسيحيين بصورة خاصة- الا ان الجزائر لم تكن لها مستعمرات تصرف فيها هؤلاء العبيد، فاحتفظت بهم رهائن في البلاد حتى تبادلهم بالنقود مع حكوماتهم، أو حتى تبادلهم مع الأسرى الجزائريين الذين هم في قبضة المسيحيين، كما حدث بين الجزائر وفرنسا سنة (١٦٩٢ م) حيث حررت الجزائر ثلاثين عبداً فرنسياً مقابل تحرير فرنسا ثمانية أتراك، وكما حدث بين الجزائر واسبانيا سنة (١٧٧٠ م) وبين دول أوروبيةاخرى.

ثم اخذت تنتشر في اوروبا مع نهاية القرن الثامن عشر، فكرة تحرير العبيد وتحريم النخاسة، وذلك لأن الزراعة والصناعة في أوروبا ومستعمراتها بلغت في حينها مرحلة من التقدم التي لم تعد هناك معها حاجة للقدرة البشرية. وبالاضافة الى ذلك فقد نشبت مخاوف من أن يؤدي تكاثر العبيد الافارقة في العالم الجديد الى تغلب العرق الأفريقي على العرق الأوروبي، مما قد يؤدي بالتالي الى استيلاء الافارقة على العالم الجديد وطرد الاوروبيين منه وضياع المستعمرات؛ وهي المناطق

الغنية التي وجدت فيها الدول الاوروبية مناخاً ملائماً لتفريغ شحناتها من (التفجر السكاني). وجمع الأموال الطائلة لبناء اقتصادها.

وهكذا، ومنذ سنة (١٧٨٠ م) بدأ الصراع بين أنصار مبدأ جواز استغلال الانسان للانسان، وعلى رأسهم تجار الرقيق والاقطاعيين، وبين أصحاب فكرة حرية الانسان، ومن هذا الصراع تغذت الثورة الافرنسية التي رفعت شعار (حقوق الانسان)، ثم اصدرت بريطانيا في سنة ١٧٨٤ (قانون حماية العبيد)[١] الذي حددت فيه مستقبل العبيد في العالم. فاشتد بذلك تخوف الشركات البريطانية ومن اهمها شركة (ليفربول) وشركة (بريستول) اللتان كانتا تجنيان أرباحاً خيالية من النخاسة، إذ كان دخلهما السنوي لا يقل عن مليون وأربعمائة ألف جنيه استرليني. وكان دخل الخزينة البريطانية السنوي من الرسوم على النخاسة يقرب من (٢٥٦) ألف جنيه استرليني. وهكذا اخذت مصلحة الشركات والخزينة تتصارع مع فكرة تحريم تجارة الرقيق. وفي النهاية وافق مجلسي العموم واللوردات (في سنة ١٧٩٤) على مشروع يتضمن تحريم بيع العبيد من طرف البريطانيين واتباعهم للأجانب. ثم استمرت المحاولات للوصول الى تحريم عام، الى ان جاءت سنة ١٨٠٨ حيث قرر البرلمان البريطاني في أول كانون الثاني (يناير) من السنة المذكورة، بداية التحريم النهائي والشامل للنخاسة. وشرعت قوانين العقوبات لمن يتعاطى هذه الحرفة ابتداء من سنة ١٨١١. كما طلب البرلمان الانكليزي من ملك بريطانيا أن يشرع في اجراء اتصالات ومفاوضات بين بريطانيا

---

(١) قانون حماية العبيد:
LA LOI DE LA CONSOLIDATION DES ESCLAVES

والدول العظمى لتعميم تحريم بيع الرقيق.

وفي شهر أيار - مايو - من سنة ١٨١٤ بدأت هذه الاتصالات والمشاورات لتحريم تجارة الرقيق واحترام حقوق الانسان المقدسة وقمع القرصنة وفرض عقوبات على الدول التي تتعاطاها. وفي ١٦ كانون الثاني - يناير - من سنة ١٨١٥، عقدت ثمانية دول عظمى هي بريطانيا وفرنسا والبرتغال واسبانيا والنمسا والسويد وبروسيا والدانمرك مؤتمراً بباريس للنظر في هذه المشكلة. وانبثقت عن المؤتمر لجنة خاصة للعمل على ايقاف - النخاسة - إما عاجلاً أو آجلاً. وفرض عقوبات اقتصادية على الدول التي لا تحترم حقوق الانسان. وبذلك بادرت كل من هولندا واسبانيا والبرتغال الى تحريم تجارة العبيد سنة ١٨١٥ م. ثم حرمت فرنسا النخاسة سنة ١٨١٩ م. اما الدانمرك فكانت سباقة الى ذلك حيث قررت منذ سنة ١٧٩٤ م تحريم تجارة العبيد. وأمهلت سكانها من المزارعين في المستعمرات عشر سنوات لتهيئة أنفسهم الى تطبيق القانون الذي بدأ العمل به في اول كانون الثاني- يناير - سنة ١٨٠٤. ثم تلتها السويد سنة ١٨١٣ م.

وبعد مؤتمر تحريم النخاسة بعثت اوروبا قائداً من فرنسا وآخر من بريطانيا لاطلاع داي الجزائر على رغبة اوروبا في أن تتوقف الجزائر عن حرفة القرصنة، وأن توافق على قوانين تحرير العبيد وتحريم النخاسة. واستقبل داي الجزائر- وديوانه- هذين المبعوثين بسخرية، لأن القرصنة كانت المورد الرئيسي للاقتصاد الجزائري، ولأن الجزائر لم تدع الى المشاركة في تلك المؤتمرات. وكانت مصالحها تتناقض تماماً والمصالح الاوروبية، لذلك رفضت المعاهدة الاوروبية، وظلت

تمارس اعمال القرصنة الى ان احتلت فرنسا الجزائر[١].

يظهر من خلال ذلك. وكما كتب مؤرخ أجنبي: «بأن القرصنة لم تكن في غرب البحر المتوسط بالشيء الجديد، فمنذ قرون عديدة، كان المسلمون، وكان المسيحيون يقومون بأعمال القرصنة في البحر، ولا يحق لنا أن نغالط التاريخ. فإن القراصنة المسيحيين كان عددهم كبيراً جداً خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر بهذا البحر المتوسط، ثم خفت وطأة القرصنة المسيحية بعد ذلك- بسبب نقل أفق عملها الى المحيط الاطلسي بعد اكتشاف امريكا ـ لكن القرصنة الاسلامية ازدادت ضراوة في الشمال الافريقي بعد إبعاد مسلمي اسبانيا واضطرارهم الالتجاء الى هذا الشمال[٢]».

الأمر الجدير بالملاحظة هو ذلك الإجماع ـ لدى المسلمين واعدائهم ـ على ان القرصنة كانت بالنسبة للمسلمين نوعاً من الجهاد في سبيل الله، مسرحه البحر. وقد شهد هذا الجهاد تطوراً مع نهاية القرن الخامس عشر. ذلك أنه لما سقطت القسطنطينية في قبضة الاتراك العثمانيين (سنة ١٤٥٣) واشتد ساعد البحرية التركية في البحر الابيض المتوسط، زاد نشاط المغامرين المسلمين في البحر، وكان سقوط غرناطة آخر القواعد الاندلسية في يد الاسبان (في سنة ١٤٩٢ م). مع ما تبع ذلك من اضطهاد الاسبان لبقايا الأمة الأندلسية المغلوبة ايذاناً بتطور المغامرات البحرية، ونزول الاندلسيين والمغاربة

---

(١) مدينة الجزائر- نشأتها وتطورها ـ علي عبد القادر حليمي. الطبعة الاولى ـ ١٩٧٢ ص ٢٩٠- ٢٩٤.

(٢) الاستاذ. ف. ابروديل ـ المجلة الافريقية ١٩٢٨ وعنها اخذ الاستاذ احمد توفيق المدني ـ حرب الثلاثمائة سنة. ص ٧٥

(الموريسكيين) المنفيين الى ميدانها، واتخذها صورة الجهاد والانتقام القومي والديني لما نزل بالأمة الاندلسية الشهيدة من ضروب العسف والارهاق.

وبدأت هذه الغارات البحرية على الشواطىء الاسبانية منذ اوائل القرن السادس عشر عقب استيلاء الاسبان على غرناطة، واكراههم المسلمين على التنصُّر؛ ففي ذلك الحين غادر الاندلس آلاف من المسلمين المجاهدين الذين آنفوا الذلة والاضطهاد. وعبروا البحر الى عدوة المغرب، واستقروا في بعض القواعد الساحلية، مثل (وهران والجزائر وبجاية) ووهب الكثيرون منهم حياتهم للجهاد في سبيل الله والانتقام من أولئك الذين قضوا على وطنهم وظلموا أمتهم. وكان البحر يهييء لهم هذه القرصنة التي لم تهيئها الحرب البرية.

وكانت شواطىء المغرب بطبيعتها الوعرة، وثغورها ومراسيها، وخلجانها الكثيرة التي تحميها الصخور العالية اصلح ملاذ لمشاريع أولئك البحارة المجاهدين والقراصنة المغيرين، وكانت مياه الجزائر وبجاية وتونس افضل قواعدهم للرسو والاقلاع. وكانت غاراتهم على الشواطىء الاسبانية ولا سيما في المياه الجنوبية تتجدد بلا انقطاع، وتنجح في معظم الاحيان في تحقيق غاياتها، وكان حكام الثغور المغربية من تونس الى وهران يشجعون هذه الاغارات، ويسمحون للمجاهدين بالرسو والتموين في ثغورهم. ولقد ظهر في هذا الوقت بالذات عنصر جديد أذكى موجة الغارات البحرية في هذه المياه: ذلك ان البحارة الاتراك أخذوا يندفعون نحو غرب البحر الأبيض المتوسط، وبرز منهم على الأخص الاخوان الشهيدان (عروج وخير الدين) المعروفان في الرواية الاوروبية (بارباروسا ـ أصحاب اللحى الشقراء).

إن الاسبان الذين قضوا على آخر معقل من معاقل المسلمين في الأندلس، سولت لهم أنفسهم انهم باستيلائهم على المغرب الاسلامي سيتمكنون من إعادته الى النصرانية كسابق عهده على ما يزعمون.

في تلك الفترة، انجز الاتراك العثمانيون اعظم انتصاراتهم على مسرح اوروبا ووصلت قواتهم الى مصر. وكان من الصعب عليهم وهم يرفعون راية الاسلام، ويجاهدون لإعلائها، تجاهل تلك الأنات والزفرات التي أطلقها شهداء العدوان بالاندلس وفي المغرب الاسلامي. ومن هنا فقد جاء الدعم الاسلامي من قبل الاتراك العثمانيين بهدف دعم أبناء المغرب الاسلامي للتصدي لهذه الموجة الصليبية الجديدة. وكان الفضل في ذلك يعود للاخوين عروج وخير الدين. وقد لا يكون هناك ثمة مبالغة اذا قيل بان المسلمين خاضوا ضد الصليبيين حرباً لا هوادة فيها اشتملت هذه الحرب على معركتين حاسمتين:

المعركة الاولى: كانت في المشرق العربي- الاسلامي- من مصر الى العراق بقيادة صلاح الدين الايوبي.

المعركة الثانية: وكانت في المغرب العربي - الاسلامي - من تونس الى أقصى المغرب بقيادة الاخوين عروج وخير الدين (أصحاب اللحى الشقراء)[1].

---

(١) المرجع الرئيسي هنا هو: تاريخ الجزائر- الاستاذ مجاهد مسعود - الجزء الاول ص ٧٥- ٧٧- فصل (دور الاساطيل الاسلامية في البحر الأبيض المتوسط).

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ
وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ
وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا
مِن هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ
لَنَا مِن لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ
نَصِيراً﴾

[سورة النساء- الآية ٧٥]

الفَصْلُ الثَّانِي

خير الدين (بربروسا)

١- سنوات الصراع المرير (٩١٨- ٩٢٤ هـ = ١٥١٢- ١٥١٨ م)

أ - من جيجل الى الجزائر

ب- الصراع في تلمسان واستشهاد عروج

٢- خير الدين- على طريق الجهاد

أ - بناء الجزائر والجهاد في البحر

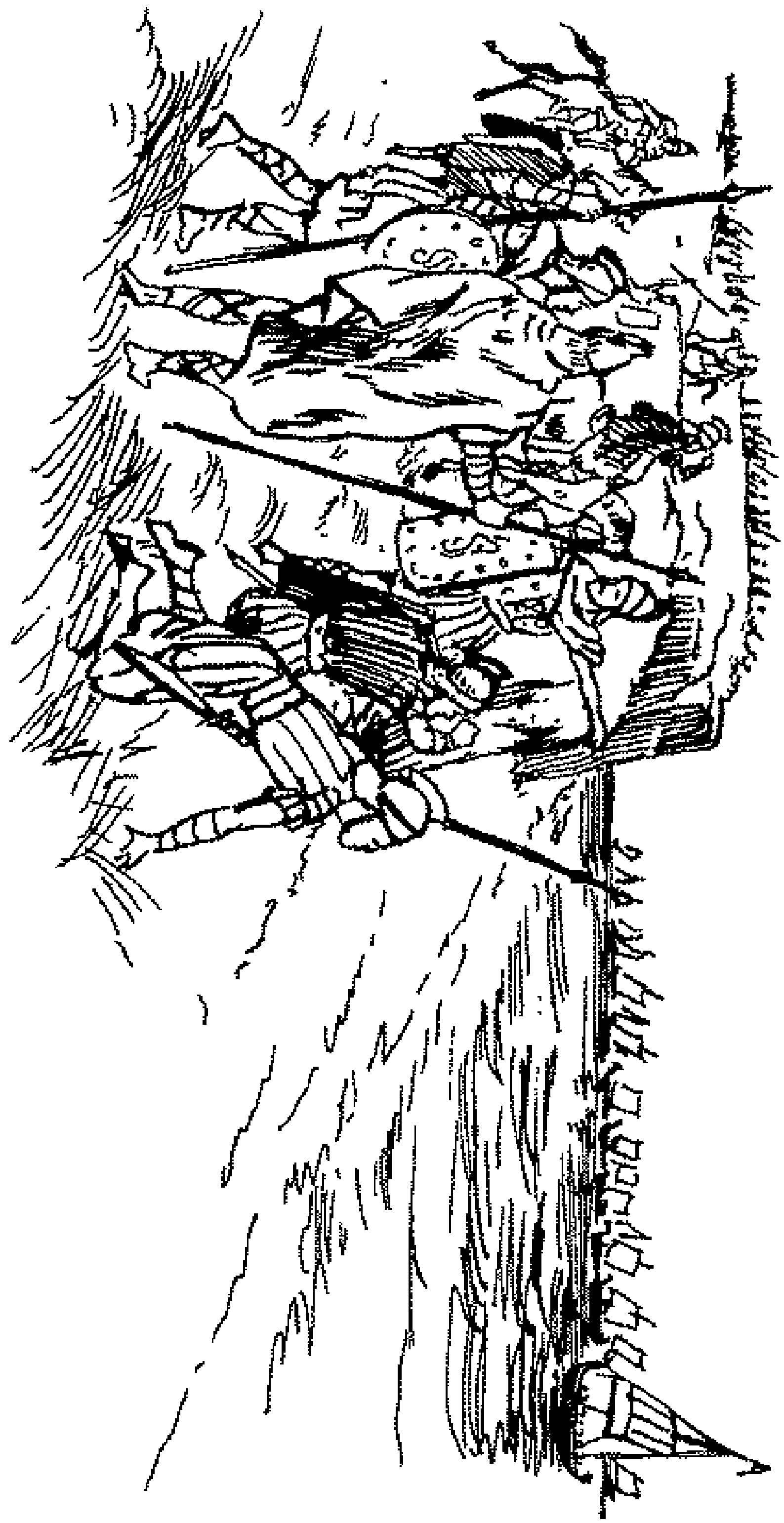
ب- خير الدين أميراً عاماً للاسطول العثماني

ج - أعداء الداخل في غياب (خير الدين)

د - شارلكان وغزو الجزائر

هـ - الصفحة الاخيرة في حياة (خير الدين)

و - (خير الدين) وموقعه في فن الحرب

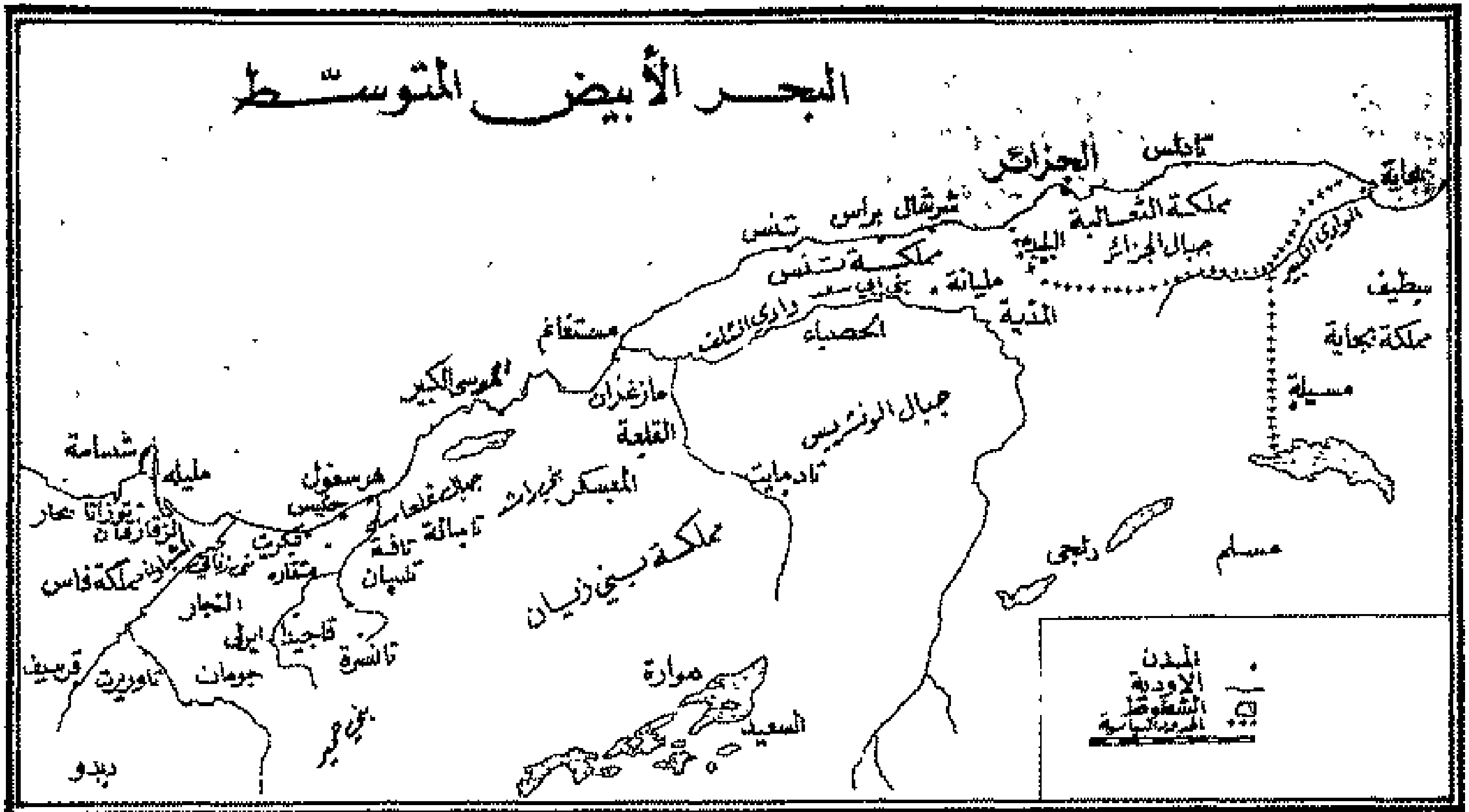


١ ـ سنوات الصراع المرير

(٩١٨ ـ ٩٢٤ هـ = ١٥١٢ ـ ١٥١٨ م)

لم يكن عروج وأخوه خير الدين، وهما في قاعدتهما في (حلق الوادي) بعيدين عن مسيرة الاحداث وتطوراتها وفي الوقت ذاته كانت أخبار غزوات الأخوين تتردد بقوة في وسط المجاهدين الذين قهرتهم القوة الاستعمارية الغاشمة، وتألب عليهم حكامهم من المتعاونين مع اعداء الدين. وقام المجاهدون في صياصي جبالهم بالاتصال مع الاخوين (ذوي اللحى الشقراء) طالبين اليهما التدخل والتعاون لنصرة الدين. وجاءت نكبة (بجاية) لتزيد من خطورة الموقف. فشكل العلماء والاعيان من أهل بجاية وفداً قابل عروج وناشده انقاذ بجاية من قبضة العدو. وكذلك فعل ملك (قسنطينة) ابو بكر الحفصي، وجمع عروج وخير الدين رجالهما، وتشاوروا في الأمر، وقرروا المبادرة بتلبية النداء، واتفقا مع جماعات المجاهدين القريبين من بجاية وفي بلاد القبائل انهما قادمان تواً، وتم الاتفاق على موعد للالتقاء عند أسوار (بجاية).

واخذت وفود المجاهدين في الوصول الى قرب المدينة، ونزلت جماعات من القبائل المستوطنة في جبال زواوة، فتجمع حوالي ثلاثة



أهم المدن ببلاد الجزائر في مطلع القرن ١٦ (حسب ما جاء من ليون الأفريقي)

آلاف مجاهد تولى قيادتهم (المجاهد الموفق). وفي الوقت ذاته غادر عروج وأخوه قاعدتهما في (حلق الوادي) ومعهما خمس سفن حربية تحمل السلاح والرجال والمدافع، فتم الوصول في الوقت المحدد. غير أن اسطولاً اسبانياً (عمارة بحرية) مكوناً من (١٥) سفينة كان قد وصل الى بجاية حاملاً معه الدعم لحاميتها.

وظهر انه من المحال على القوة الاسلامية الصغيرة مجابهة الاسطول المتفوق. فقام الاخوان (عروج وخير الدين) بتنفيذ مناورة خداعية، متظاهرين بالابتعاد بقوتهما عن بجاية، وانطلق الاسطول الاسباني للمطاردة، وعندما وجد (الاخوان) ان بعض قطع الاسطول قد اصبحت ضمن مجال مدفعيتهما، قاما بانقضاض مباغت، وجرت معركة قاسية نجح فيها عروج بالاستيلاء على سفينة اسبانية وأغرق اخرى فيما لاذت بقية قطع الاسطول بالفرار. وكان من رأي خير الدين محاصرة (بجاية) بحراً وترك المجاهدين لمحاصرتها براً حتى يضعف أمرها وتحين فرصة مناسبة للانقضاض. غير أن (عروج) صمم على النزول بقسم من قواته للقيام بهجوم فوري. وتم تنفيذ ذلك. فقاد (عروج) قوة من خمسين مجاهداً. ونزل بهم الى البر، وتقدم مستطلعاً أسوار المدينة وحصونها. فيما كان أفراد الحامية يتابعون من وراء الأسوار تحركهم من فوق الشرفات، وعند اقتراب (عروج) ووصوله الى مدى الاسلحة الفردية (البنادق) انهالت عليه وعلى قوته النيران، وأصابت رصاصة ذراعه فكسرتها. وظهر انه من المحال متابعة الهجوم، فاضطر (عروج) للرجوع الى تونس فوراً لمعالجة ذراعه، ولم يجد الاطباء يومئذ لها من علاج الا بترها. لكن عروج لم يواصل طريقه الى تونس مسالماً، او مستسلماً للألم من كسر ذراعه، وإنما استمر في أداء واجبه، اذ انه اصطدم وهو في طريقه الساحلي

بسفينة معادية تابعة لمدينة جنوه الايطالية، فهاجمها وأسرها وغنم ما فيها، ثم رجع بها الى تونس وضمها الى قوة اسيطيله.

ولم تكن هذه المعركة ـ او هذا الاشتباك الأولي ـ معدوم القيمة أو الفائدة، فقد ظهر لرجال القبائل الجبليين شدة مراس هؤلاء المقاتلين البحارة من المسلمين، وما يتميزون به من الشجاعة والإقدام. فكان الاشتباك هو اختبار للثقة، وبداية للتعارف وتنسيق التعاون بين القوى المختلفة، وجاء فقد ذراع (عروج) عربوناً لهذه الثقة.

وفي الوقت ذاته، كانت هذه العملية انذاراً للاسبانيين، الذين عرفوا ان تلاحم القوى في البر والبحر سيؤدي الى تعاظم قوة المسلمين، فعملوا فوراً على طلب المزيد من الدعم من اسبانيا، وغيروا بالمقابل سياستهم للفصل بين القوى البحرية (عروج واخيه خير الدين) والقوى البرية (الوطنية والقومية في المغرب الاسلامي) وذلك باستمالة هذه الاخيرة وإغداق الأموال عليها وبذلك أمكن لهم العثور على من يتعاقد معهم لتأمين الإمداد والتموين للحامية الاسبانية.

وقد أفاد (عروج) من تجربته الاستطلاعية لمدينة (بجاية)، فعرف انه من المحال محاصرتها وخوض حرب طويلة ضدها وهو في قاعدته البعيدة في (تونس). فقرر فتح (جيجل) التي تبعد مسافة (١٢٠) كيلومتراً غربي بجاية، وتحريرها من قبضة الاعداء، واتخاذها قاعدة للعمليات المقبلة يتم فيها تجميع الوسائط وحشد القوى. وكانت مدينة جيجل خاضعة لحامية ايطالية (من جنوه) منذ سنة (١٢٦٠ م) وعندما قام (عروج) بهجومه الفاشل على (بجاية) اسرعت حامية (جيجل) فطلبت الدعم الذي تولى امره المغامر

(أندريا- دوريا) والذي كان يعمل في حينها في خدمة فرنسا، فأسرع بقيادة اسطوله، ودخل (جيجل) واشتبك مع أهلها المسلمين في معركة وحشية، وأخرجهم منها. ودعم حاميتها الجنوية لتمارس دورها التجاري الذي كان لها من قبل. وعاد أهل (جيجل) المشردون فاستنجدوا (بعروج) واعلنوا لـه استعدادهم لـدعمه بكـل ما يستطيعونه، وتم الاتفاق على موعد الهجوم، ومضى المجاهدون في استعداداتهم. وقاد (عروج) قوته البحرية ومعه اخوته، حتى اذا ما وصل (جيجل) بدأ هجومه على الفور، وتم انزال القوات البحرية، وتأمين الاتصال مع مجموعات المجاهدين، من اهالي جيجل بصورة خاصة- وبعد معركة عنيفة وقاسية استطاع المسلمون اقتحام المدينة وابادة حاميتها إبادة تامة. ورجع أهل البلدة الى ديارهم، وشاركوا بقية المجاهدين في قسمة الغنائم الوفيرة التي كانت في المركز التجاري وذلك في سنة (١٥١٤ م).

وتمكن عروج من تحقيق هدف مزدوج، فقد استطاع طرد أعداء الدين من بلدة اسلامية، وهي اول بلدة ينقذها على ساحل البلاد - التي اصبحت فيها بعد تدعى البلاد الجزائرية -. وحصل أيضاً على قاعدة صلبة ومأمونة - برية بحرية - يمكن له الانطلاق منها لتطوير أعماله القتالية. وهكذا استقر عروج في جيجل تحيط به حماية اهلها الذين بادلوه اخلاصاً باخلاص ووفاء بوفاء. وكان لا يزال في حاجة لفترة من الراحة حتى تشفى جراح ذراعه المبتورة، وقد أفاد من فترة الهدوء هذه، فعمل على تطوير اتصالاته بمختلف الوفود الاسلامية التي اخذت في التوجه من كل المغرب الاوسط لتلقي عليه مسؤولية طرد أعداء الدين من بلاد المسلمين، ولتعاهده على تقديم ما تستطيعه من الدعم والمساعدة. وفي تلك الفترة، ارتفعت الاستغاثات من

الأندلس وهي تطلب الانقاذ، نظراً لما كان يتعرض له أهلها المسلمون من العسف والجور- فتوجه (خير الدين) على رأس قوة البحرية، وما أمكن له جمعه من السفن ملبياً بالاتفاق مع أخيه أصوات الاستغاثة اليائسة حيث المستضعفون من الرجال والنساء والاطفال الذين نكث الاسبان بوعودهم تجاههم، وتنكروا للمواثيق المعقودة معهم، فأصبحوا يرغمونهم على اعتناق المسيحية تحت تهديد الإبادة. وكانت الاستغاثة تتردد بالآية الكريمة: ﴿رَبَّنا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ القَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُها، واجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلياً. واجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾[1].

وأنقذ خير الدين ما أمكن انقاذه، نظراً لما كان يتعرض له من مضايقات الاسطول الاسباني، وانقض على جزائر البالييار التي أصبحت تحت سيطرة الاسبانيين، واحتل (مينورقة) وأخذ أسرى من أهلها، ثم رجع الى قاعدته في مدينة (جيجل). وفي أثناء فترة غيابه، كان أخوه (عروج) قد وطد مكانته في جهة جيجل والجبال المحيطة بها، حيث التفت حوله قبائل (كتامة) التي رأت فيه مثال الانسان المسلم المؤمن، واحبت صدقه وأخلاقه، فبايعته أميراً عليها، وعاهدته على دعمه والسير من ورائه الى ميادين القتال والجهاد لإنقاذ المدن الاسلامية. وتمكن (عروج) بذلك من تكوين جيش منظم، أحسن تشكيله في مجموعة من الكتائب، ودربه على استخدام الاسلحة الحديثة والرمي بها. كما وعده الشيخ (احمد بن القاضي- شيخ بلاد زواوة الغربية، أوكوكو) بالدعم والتأييد، وانطلق رجال الدين والعلماء وهم يحضون على الجهاد في سبيل الله، ولم تلبث الدعوة للجهاد حتى أصبحت عامة وشاملة.

(١) سورة النساء- الجزء الخامس- الآية ٧٥.

وأكمل (عروج) استعداداته، وغادر قاعدته متوجهاً الى (بجاية) في شهر آب (أغسطس) من سنة ١٥١٤ وهو يقود جيشاً من المجاهدين يضم عشرين ألف مجاهد. ووصل (بجاية) فاحكم الحصار حولها. واشتبك مع حاميتها في معارك قاسية. وكان يتابع في الوقت ذاته دراسة التنظيم الدفاعي للمدينة في محاولة لتحديد نقاط الضعف التي تساعد على اختراق التحصينات والأسوار. واستمرت عملية الحصار طوال ثلاثة أشهر وأدرك (عروج) بعدها صعوبة اقتحام المدينة في هذه الجولة، فقرر الانسحاب ورفع الحصار. وعاد الى (جيجل) لقضاء فصل الشتاء فيها وإكمال الاستعدادات.

تحرك (عروج) في ربيع سنة ١٥١٥ لتنفيذ محاولته الثالثة من أجل تحرير بجاية، وقد اعتمد في محاولته هذه على إجراء حصار بري- بحري، فقاد قواته في البر، ووجه اسيطيله بحراً للمشاركة في العملية، حيث اقتحمت السفن مصب نهر الصومام الذي كانت مياهه غزيرة خلال ذلك الفصل من السنة مما ساعد بإحكام الحصار على المدينة.

وركز (عروج) نيران مدفعيته على معقل (الحصن الصغير). واستمر في قصفه بقوة وعنف حتى تم له تدميره، والقضاء على معظم حاميته. وحاولت قوات المجاهدين اقتحام المدينة عبر انقاض القصر الصغير، غير انها اصطدمت بالمواقع المحصنة ومراكز الدفاع القوية التي وقفت خلفها الحامية الاسبانية وهي تدافع بعناد وضراوة، وفشلت المحاولة للهجوم من ناحية البحر. وعندها وجه (عروج) نيران مدفعيته الى القصر الكبير، وأخذ يقصفه بتركيز كبير. وتقدمت قوات المجاهدين نحو القصر الكبير، واستخدمت المتفجرات والألغام

من أجل تدمير الخندق المحيط به وتدمير أسواره.

وأمر (عروج) ببناء برج مرتفع فوق التل الذي يهيمن على (بجاية) حتى يراقب سير المعركة. وعمل على رفع المدافع الى التل من أجل ضرب الاسوار بالرمي المباشر. وقرر مهاجمة المدينة هجوماً عاماً من كل الجهات. ووقعت معارك دموية استشهد فيها عدد كبير من المجاهدين، وقتل عدد من الاسبانيين ايضاً. وقد تركز الهجوم الاسلامي على خمس نقاط حتى لا يترك للاسبانيين فرصة التجمع في مكان واحد. وكانت اعمال القصف والتدمير قد استنزفت كمية البارود التي اعدها (عروج) للمعركة. فأرسل في طلب البارود من (السلطان الحفصي بتونس محمد بن الحسن) غير ان هذا السلطان امتنع عن تقديم ما طلبه (عروج) وتجاهله، فوجد هذا نفسه مضطراً لايقاف الاشتباكات بعد أن نفذت الذخائر. وكانت مياه وادي الصومام قد تناقصت حتى لم يعد باستطاعة السفن الملاحة فيه، كما لم يعد باستطاعة هذه السفن العودة للبحر نظراً لأن الاسبانيين كانوا قد حشدوا اسطولاً قوياً وقف يتربص خروج السفن من النهر الى البحر. فأمر (عروج) بإحراق السفن، بعد أن استخدم قسما منها لعبور القوات. وخسرت قوات عروج ثلاثة أرباع قوتها، كما قتل في المعركة (محمد الياس) الأخ الأكبر لعروج وخير الدين، والذي كان قد نذر نفسه للعلم وحفظ القرآن والتفقه في أمور الدين الى جانب مشاركته في الجهاد. واصطحب عروج اثناء انسحابه ستمائة أسير من المقاتلين الاسبان.

وكان (عروج) قد أرسل للسلطان (سليم) عند استيلائه على (جيجل) هدية رمزية مما حصل عليه من الغنائم، وارفق الهدية برسالة شرحت للسلطان العثماني ما يتعرض له ـ وأخوه خير الدين ـ من

الصعوبات في جهادهما المرير لإنقاذ المسلمين من براثن الصليبية الاسبانية. وما يقدمه أبناء المغرب الاسلامي من الجهد والتضحيات ضد أعداء الدين، وما يحتاجونه من الدعم والمساعدة. فتقبل السلطان (سليم) الهدية، ورد عليها بإرسال (١٤) سفينة محملة بالرجال الأشداء المقاتلين مع كميات جيدة من الاسلحة والذخائر والتجهيزات، ووصل هذا الدعم عند عودة (عروج) الى قاعدته في (جيجل) فساعدت على رفع الروح المعنوية للمجاهدين. وزادتهم تصميمًا على إجراء محاولة جديدة ضد (بجاية). فتم حشد السفن والمدافع الضخمة والمواد التموينية والاسلحة والذخائر التي تكفي لحملة طويلة الأمد. وعندما كان (عروج) في سبيله للتحرك نحو (بجاية) للمرة الرابعة وصل الى (جيجل) وفد من مدينة (جزائر بني مزغنة) وقابل (عروج) وشرح له ما يلقاه المجاهدون بمدينة (بولكين بن زيري) من عنت وارهاق. واكدوا اخلاص شيخها (سالم التومي) واستعداده للتعاون مع (الاتراك العثمانيين).

أ ـ من جيجل الى الجزائر

طلب (أهل الجزائر) الى (عروج) إنقاذ مدينتهم من الخطر الاسباني الذي كان يتهددهم باستمرار من الحامية الاسبانية التي نزلت بحصن الصخرة ـ البنيون ـ وهو الحصن الذي حصل عليه الاسبان في سنة (١٥١٠ م) بالاتفاق مع ممثلي الجزائر. وعكف الأخوان (عروج وخير الدين) على دراسة الموقف فتبين لهم أن باستطاعة الحامية الإسبانية توجيه مدفعيتها من جزيرتها ـ البنيون ـ لتدمير الجزائر في كل وقت، ونتيجة لذلك فان باستطاعتهم احتلال الجزائر متى شاؤوا. وان احتلال الاسبان لهذه المدينة التاريخية الهامة،

الى جانب احتلالهم لمدينة (بجاية) وتحويلها الى قاعدة صلبة، سيضمن للاسبان تفوقاً كبيراً، لا سيما وأن قواعدهم في وهران والمرسى الكبير ستتعزز اذا ما أمكن لهم احتلال مدينة الجزائر ذاتها وتحويلها الى قاعدة حصينة. هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى فان سيطرة القوات التركية العثمانية على الجزائر سيساعد القوات الاسلامية على دعم مقاومة البلاد المجاورة في بجاية ووهران، ويضمن للاسطول الاسلامي حرية العمل من قاعدة اضافية. وهكذا قرر (عروج) الاستجابة لطلب اهل الجزائر (بني مزغنة) وصمم على السير اليها براً بما يتوافر له من القوات وتوجيه الاسطول في الوقت ذاته بقيادة أخيه (خير الدين). وغادر (عروج) قاعدته (جيجل) على رأس قوة تضم ثمانمائة من الاتراك، وثلاثة آلاف من مجاهدي الجبال القبائلية، بينما أبحر (خير الدين) ومعه (١٨) سفينة كبيرة، و (٣) سفن مسلحة، (تحمل (٢٥٠٠) من مجاهدي المشرق الاسلامي). ووصلت القوات الى (الجزائر) فاستقبلها أهل الجزائر استقبال الفاتحين. وسار (عروج) فوراً الى مدينة (شرشال) وطرد الاسبانيين منها، ورجع الى مدينة الجزائر. حيث اجتمع زعماؤها وأصحاب الرأي فيها وقرروا ان يسندوا اليه واجب (أمير الجهاد). وكان ذلك من أبرز أحداث الجزائر في سنة (٩٢٢ هـ = ١٥١٦ م).

شعر (الامير سالم التومي - حاكم البلدة السابق) أن الأمر قد أفلت من يده، وأن عشيرته من (بني سالم) لم تعد هي القوة الأساسية، واخذ في البحث عن الوسيلة التي تضمن له ولعشيرته استعادة ما كان لهما من نفوذ، وشعر (عروج) بأن اتصالات (سالم التومي) تثير الشكوك، وقد تؤثر على عملياته في الوقت الذي وضع فيه مدافعه في مواجهة (صخرة البنيون) وأخذ في قصف الحامية الاسبانية فيها.

فأصدر أمره بقتل (سالم التومي)[1]. وعزز مكانته باتخاذ مجموعة من الاجراءات مثل نشر سلطانه بعد أمد وجيز على كامل السهول المحيطة بمدينة الجزائر، ورفع راياته فوق أسوار المدينة والقلاع المحيطة بها، (وكانت ألوان العلم الأخضر والأصفر والأحمر). كما بادر بسك النقود التي تحمل شعاره والتي كتب عليها (ضرب في الجزائر).

أما (يحيى بن سالم التومي) فقد مضى الى وهران بعد مقتل ابيه، يستنجد بالاسبان، ويبين لهم خطر استقرار الاتراك بمدينةالجزائر، ويستعديهم عليهم بكل سرعة حتى يعيدون إليه مشيخة أبيه على مدينة الجزائر. ولم يكن الاسبان في حاجة لمثل هذه الاستثارة، فقد ادركوا للوهلة الأولى ان استقرار عروج بمدينة الجزائر وبيعة اهلها له (اميراً على الجهاد) سيهدد كل مشاريعهم بالانهيار، وسيقضي على المخططات الصليبية في التوسع عبر أقاليم المغرب الاسلامي.

---

(١) تذكر بعض المصادر أن عروج قتل (سالم التومي) بيده لقاء خيانته التي تؤكدها الرسالة التالية والتي وجهها أحد عملاء الاسبانيين من شيوخ العشائر الى (الكاردينال خينيس) وفيها: والحمد لله، الى مدبر المملكة القشتالية وكبيرها وخليفة سلطانها الكاردينال: بعد سلامنا عليكم نعرفكم ان ابن سلطان تنس هو ابنكم ومتعلق بكم، ومحسوب عليكم، وكذا ابن التومي صاحبكم في الجزائر، انذبح عليكم وعلى خدمتكم، وغفلتم عليه وعلى السلطان في تنس وعلى جميع من عاملكم. حاشاكم من هذا، فان كنتم تعملون على همتكم أعزموا للجزائر قبل ما تجيء عمارة (اسيطيل) التركي، فيستولي على هذا البركة، ونحن عرفناك ولو يكون هذا الخبر عندكم. وايضاً ابن سلطان تنس كان عنده خاله الشيخ المنتصر ينفر عليه (أي يدافع عنه) واليوم مات. ما يقالو أحد الا الله وانتم اذا ما عزمتم اليه، ينفسد ويفسد عليكم الحال كثيراً في هذا البر. والقائد مرتين ادرغوت عارف بكل شيء. وهو يكون عرفك بكل مقصد. وكتب لكم من مدينة مستغانم. يصل الى يد الفاضل الشهير قرض نال (الكاردينال). عن (حرب الثلاثمائة سنة- المدني- ص ١٧٥- ١٧٦).

وبالإضافة الى ذلك، فان تعاظم قوة (عروج وأخيه خير الدين) ستدمر تلك العلاقات التي جهدت اسبانيا في اقامتها مع الفئات المتعاونة معها، وهو أخطر ما كان يتهددها فقررت تنسيق الجهد مع عملائها للقيام بهجوم مباغت على الجزائر، تشترك فيه فيالق عسكرية جديدة بالإضافة الى حامية (حصن الصخرة- البنيون) وقوات سلطان تنس، وقوات الحاقدين على (عروج وأخيه) من أمثال (يحيى بن سالم التومي) وانصاره، وبالإضافة أيضاً الى جموع الأعراب من (بني سالم) والذين كانوا ينتشرون حول الجزائر والذين كانوا ينتظرون الفرصة المناسبة- وفقاً لتقدير السلطات الاسبانية- من أجل الانقضاض على المدينة لتدمير النظام الجديد الذي اقامه (الأخوان ذوي اللحى الشقراء) والفوز بشيء من غنائمه وأسلابه.

أعد الكاردينال (خمينيس) حملة جديدة ضد الجزائر، وأشرف على تجهيزها. وعين لقيادتها قائداً من أبرز القادة الأكفاء هو (دياقودي فيرا). وأبحرت هذه الحملة في اواخر شهر ايلول - سبتمبر- (١٥١٦ م) من الموانىء الاندلسية وهي تضم (٣٥) سفينة تحمل قوة من ثمانية آلاف مقاتل مع متطلباتها من المدفعية والذخائر، واختارت لنزولها السهل الذي يقع عليه اليوم (ربض- باب الواد) حيث كان يصب وادي المغاسل في البحر. وكان (عروج) وقادة المجاهدين معه من ابناء الجزائر يتابعون الموقف، فوضعوا خطط عملياتهم كالتالي:

اولاً: السماح للقوات الاسبانية بالانزال مع عدم تقديم مقاومة كبيرة.

ثانياً: ترك معظم القوى الاسلامية في حصون المدينة ووراء أسوارها، وعدم زجها الا في الوقت المناسب.

ثالثاً: استنزاف القوة الاسبانية بعمليات خاصة ـ اغارات وكمائن ـ وذلك عند انتشار هذه القوة حول المدينة، ثم زج كتلة القوات الرئيسية بعد إضعاف القوة الاسبانية وتدمير روحها المعنوية.

ومقابل ذلك وضع قائد القوة الاسبانية مخططه كالتالي:

أولاً: إنزال القوات والاسلحة الى المنطقة الساحلية، وإقامة معسكر لها في المرحلة الاولى.

ثانياً: تسلق المرتفعات المحيطة بالجزائر، فيما يلي الأسوار، واحتلال موقع القصبة، والإشراف منه على المدينة، وقصفها بالمدافع.

ثالثاً: انتظار الجيش الذي سيقوده (سلطان تنس) ومهاجمة المدينة بقوة. في الوقت الذي يكون فيه عملاء الاسبان قد اضطلعوا بتنفيذ المؤامرة لضرب الجيش الاسلامي من الداخل.

أخذ كل من الجانبين في تنفيذ مخططه بدقة وعناية. فدارت المعركة بسرعة مذهلة، ولم تستمر أكثر من أيام قليلة، وتم التنفيذ على النحو التالي:

نزل الجيش الاسباني الى السهل بدقة ونظام محكمين في يوم ٣٠ ايلول ـ سبتمبر ـ ١٥١٦. وأخذ في تسلق المرتفعات المؤدية الى حي القصبة خلف المدينة طوال يومي ١ و ٢ من تشرين الأول ـ اكتوبر. وانطلقت زمر المجاهدين التي تركها (عروج) حول تلك المرتفعات خارج الأسوار، فأخذت في الاشتباك مع الاسبانيين، وتوجيه الضربات اليهم بصورة مباغتة وسريعة من كل الاتجاهات، والانسحاب قبل أن يتخذ هؤلاء اجراءات مضادة، ووقفت القوات الاسبانية أمام مأزق حرج وهي تتحرك بين الأسوار الحصينة من جهة

وبين زمر المجاهدين المنتشرين في كل مكان من جهة اخرى.

وأصيبت القوات الاسبانية بأول خيبة أمل عندما طال انتظارها لوصول (جيش تنس) بدون أن تظهر ولو بادرة واحدة تشير الى احتمال ظهور هذا الجيش وأصيبت القوات الاسبانية بخيبة أمل ثانية عندما لم يقم عملاؤها بحركة تمرد داخل الجزائر تفتح لهم أبواب المدينة فيقتحمونها بحد أدنى من الجهد. وزاد حجم الضربات الموجعة التي كان يوجهها المجاهدون، ولم يبق أمام قائد القوات الاسبانية الا الانسحاب في اتجاه الساحل للتوقف في السهل تحت حماية مدفعية الاسطول القوية. وكان هذا التحرك هو ما ينتظره (عروج) إذ ما كادت القوات الاسبانية تقوم بتراجعها حتى فتحت الجزائر أبوابها، وأطلقت مجاهديها دفعة واحدة حتى لم يبق فيها رجل يستطيع حمل السلاح الا وانطلق الى ميدان المعركة وكانت قوات المجاهدين المسلمين تتكون من:

١ ـ الاتراك أصحاب عروج، وهم فئة قليلة، انحصر واجب أفرادها بقيادة القوات والتقدم أمامها.

٢ ـ رجال الأندلس المهاجرين، والذين قال عنهم الملك الاسباني (فيليب الثاني)[1] لسفير فرنسا في بلاطه (فوكفولس)، «يوجد في مدينة الجزائر خمسة عشر الفاً ممن يحسنون استخدام الأسلحة النارية من بينهم عشرة آلاف من العرب المسلمين الذين أخرجوا من

---

(١) فيليب الثاني: (PHILLIPPE II) ابن شارل الخامس (شارلكان) وإيزابيللا البرتغالية، وهو من مواليد مدينة ابن الوليد (VALLADOLID) (١٥٢٧ـ١٥٩٨). اشتهر بتعصبه الشديد للكاثوليكية، واعتماده المطلق على القوة المسلحة لفرض هيمنة اسبانيا الكاثوليكية وبناء عظمتها، بهدف السيطرة على فرنسا، غير أن محاولاته العسكرية ومغامراته باءت بالفشل وكذلك فشل اسطوله (الارمادا)الذي بعث به الى انكلترا في =

اسبانيا في السنوات الاخيرة، وهم من خيرة الجنود».

٣ـ المقاتلون من سكان المدينة ذاتها، والذين كان الاسبان يعتقدون بأنهم سيكونون عوناً لهم في هذه المعركة.

تدفقت قوات المسلمين وهي تندفع كالسيل لتجتاح في طريقها قوات العدوان الصليبي وهي تردد صيحة الحرب (الله أكبر) ورددت جبال الجزائر أصداء المعركة. فأقبلت جموع المجاهدين لترفد المعركة بالمزيد من القدرة والشدة. وعمّ الرعب والفزع في صفوف القوات الاسبانية التي فقدت قيادتها السيطرة عليها. فهيمن الاضطراب على كل تحركاتها. ولم يبق هناك من مجال أمامها الا العودة للسفن، في حين كانت قوات المجاهدين تسد على هذه القوات كل المنافذ وتعمل فيها قتلاً وأسراً. وزاد من محنة القوات الاسبانية هبوب عاصفة هوجاء حطمت على صخور (باب الواد) نصف قوة الاسطول الاسباني، وبات من الصعب على فلول القوات الوصول في وسط هذا الهياج الى السفن التي كان يضرب بعضها بعضاً، وقد ازدحمت لانقاذ ما يمكن لها انقاذه. وتركت فلول القوات الاسبانية، كامل متاعها وجميع تجهيزاتها ووسائطها بالاضافة الى ثلاثة آلاف قتيل وثمانمائة أسير.

دعم هذا النصر العظيم من ثقة المجاهدين بقدراتهم وإمكاناتهم، ورفعت من روحهم المعنوية التي أحبطتها الانتصارات الاسبانية السابقة، فأقبل سكان سهل متيجة (متوجة) وهم يعلنون ولاءهم المطلق وتأييدهم للنظام الذي شرع (عروج) باقامته على أرض الجزائر وانضمت لإمارة الجزائر مدن: (البليدة ومليانة

= الوصول الى هدفه، حيث مزقته العواصف العاتية، وعندما توفي ترك اسبانيا في حالة من الاستنزاف المطلق والانهيار الاقتصادي التام.

والمدية) وما يحيط بها من القرى (الدوارات) كما اعترفت به وأقرت بسيادته بلاد الجبال (القبائلية). وأصبحت إمارة الجزائر تمتلك الهيبة والقدرة.

كان (خير الدين) واسطوله في قاعدة (جيجل) عندما حدثت المعركة الظافرة، وعندما بلغه انتصار المجاهدين قاد اسطوله المكون من عشر سفن، وأرسى به في مدينة الجزائر على الرغم من وجود الحامية الاسبانية في قلعة الصخرة. وكان عروج وخير الدين يعرفان أن الاسبان لن يقفوا مكتوفي الايدي تجاه ما نزل بهم من هزيمة، وأنهم لن يتخلوا عن احتلالهم للجزائر بسهولة، فبادر عروج وخير الدين لتحصين مدينة الجزائر وتنظيم الدفاع عنها. وأسرع أبناء الجزائر لبناء الأسوار الضخمة والقلاع الحصينة بسواعدهم القوية تدفعهم حماسة لا حدود لها وإيمان لا يوصف.

قرر عروج استثمار النصر للقضاء على النظام العميل الذي اقامه الاسبان في (تنس) وعينوا لادارته (يحيى بن سالم التومي - الزياني) ووعدوه بتوسيع إمارته لتشمل (تلمسان) بعد انتصارهم على سلطنتها التي آلت الى (حميد العبيد - من بني مهل). وقد اتخذ (عروج) قراره هذا بعد ان ولغ (يحيى بن سالم التومي) في دماء المسلمين. وبعد ان شجع الاسبان على غزو الجزائر وواعدهم على تقديم الدعم- ولو انه لم يفعل- وعلى هذا، قاد (عروج) قواته براً حيث غادر الجزائر في شهر حزيران (يونيو) سنة ١٥١٧ ومعه الف تركي وكتائب من المجاهدين الاندلسيين. وفي الوقت ذاته تولى (خير الدين) قيادة القوة البحرية.

كان سلطان (تنس) يحيى بن سالم التومي- قد تلقى دعمًا اسبانياً يتكون من خمسمائة مقاتل بالاضافة الى اسيطيل يضم أربعة سفن،

وعندما علم بتحرك عروج وأخيه خير الدين قاد ما لديه من القوة الى (واد الجر) على بعد خمسة مراحل من (البليدة). وكان من المقدر له أن يخسر المعركة مسبقاً إذ تخلى عنه معظم المسلمين في (تنس). وهكذا فما ان وصل (عروج) وقواته حتى دارت على الفور معركة قصيرة وحاسمة انتهت بهزيمة قوات (السلطان التومي) وتمزقها شر ممزق، ودخل جيش الجزائر الظافر مدينة (تنس) وركب الاسبان سفنهم وغادروا المدينة على عجل، وقتل السلطان التومي. وانصرف بعد ذلك (عروج) لاعادة تنظيم الإقليم، فقسمه الى قسمين إداريين: مقاطعة شرقية يتولى إدارتها خير الدين ومركزها الإداري مدينة (دلس). ومقاطعة غربية يتولى إدارتها عروج بنفسه ومركزها الإداري مدينة (الجزائر العاصمة) وغادر خير الدين مدينة تنس بعد الفتح، وذهب الى دلس فافتتحها بدون مقاومة تذكر، وانصرف لإدارة أمورها.

ولم يكد (عروج) ينهي تنظيم أمور البلاد تنظيمًا أولياً حتى وفد عليه أهل (تلمسان) يستنجدون به لانقاذهم مما نزل بهم على أيدي سلطانهم الزياني (أبو حمو الثالث) الذي زاد عسفه باعتماده على الاسبانيين الذين اعادوا تنصيبه على (عرش تلمسان) وأعانوه ضد الملك الشرعي (أبي زيان) الذي تم ايداعه السجن بعد انتصار (ابو حمو الثالث). وتبع ذلك صراعات مريرة واغتيالات كثيرة مزقت شعب المدينة الواحد، واسلمته الى حالة رهيبة من الفوضى والاضطراب.

وضع الاخوان ذوي اللحى الشقراء (عروج وخير الدين) هدفاً لهما وهو تحرير المغرب الاوسط (الجزائر) من الاسبانيين الصليبيين. وكان هذا الهدف يتطلب بالضرورة طرد القوات الاسبانية من

القاعدتين الاساسيتين وهما بجاية (شرقي مدينة الجزائر) ووهران والمرسى الكبير، غربيها.

ولقد ابرزت مسيرة الاحداث أن المنطقة الغربية هي الاكثر خطورة، إذ أن مصدر التهديد هنا لم يعد ممثلاً بالقوات الاسبانية وحدها. وإنما أضيف اليه خطر (الزيانيين) الذين ربطوا سلطتهم وقوتهم بالاحتلال الاسباني، هذا بالإضافة أيضاً الى الخطر المتعاظم للبرتغاليين والذي لم تنجح مملكة (بني وطاس المرينية) من وضع حد له أو إيقافه. وهكذا جاءت استغاثة أهل (تلمسان) متوافقة مع ما كان يطمح الاخوان (ذوي اللحى الشقراء) لتحقيقه. فمضى (عروج) في إعداد العدة لنجدة (أبي زيان) المقيم سجيناً في تلمسان، ولدعم شيعته وأنصاره في صراعهم ضد القوات الاسبانية.

ب- الصراع في تلمسان واستشهاد عروج

ما إن أتم (عروج) استعداداته حتى اندفع بجرأة في اتجاه (تلمسان) وهو يقود قواته عبر الهضاب الداخلية بهدف تجنب الاصطدام بالحاميات الاسبانية المنتشرة على محيط (وهران). وعندما وصل الى (هوارة) قلعة (بني راشد) اتخذ منها قاعدة لحماية خطوط مواصلاته، نظراً لما كان يتوافر لها من المميزات الدفاعية، ونظراً لموقعها المناسب حيث كانت تبعد مسافة (٢٥) كيلو متراً عن (معسكر) وتبعد عن (مستغانم) نحواً من (٥٥) كيلو متراً. ووضع في القلعة حامية تضم ستمائة مقاتل. وكلفهم بتنفيذ عمليات صغرى لإزعاج الاسبانيين في (وهران) وحرمانهم من حرية العمل أو التحرك. ثم مضى بالجيش الجزائري حتى وصل (سهل أربال) حيث كان (أبو حمو الثالث) قد أقام معسكره هناك ونظم قواته التي ضمت ثلاثة آلاف راجل - من المشاة -

وستة آلاف فارس. غير أن هذه القوة على ضخامة حجمها لم تصمد لصدمة جيش الجزائر الذي يقوده (عروج) فتمزق بسرعة، ومضى (عروج) لمتابعة تقدمه بسرعة مذهلة حتى وصل (تلمسان)، التي استقبلت قوات الجزائر بالفرحة العارمة. وخرج (أبو زيان الثالث المسعود) وتولى سلطانه، غير أن الفتن ما لبثت أن عادت للظهور بين اطراف الزيانيين ذاتهم، هؤلاء المؤيدين لأبي زيان واولئك انصار (أبو حمو) وبينهما انصار الاسبانيين وعملاءهم. وتعاظمت الفتنة الى درجة حملت (أبو زيان) على إعلان تمرده على (عروج) الأمر الذي أرغم هذا على العودة الى تلمسان وقتل سلطانها وجماعة من قرابته وأنصاره بالإضافة الى قادة الفتنة وزعماء المشاغبين.

وفي تلك الفترة، كان (أبو حمو) قد جمع بعضاً من فلول قواته الممزقة، ومضى بها الى مدينة (فاس) غير أنه لم يستقر بها طويلاً، فمضى الى مدينة (وهران) حيث وضع نفسه تحت حماية حاكمها العام الاسباني، مستمداً منه العون والدعم حتى يستعيد ملكه وسلطانه. كان ملك اسبانيا الجديد (شارل الخامس- أوشارلكان) يتابع تطورات الموقف في المغرب الإسلامي. فأرسل الى الحاكم العام في (وهران) يأمره باستخدام كل إمكاناته لانتزاع تلمسان من قبضة المسلمين الجزائريين وإعادة (أبو حمو - أو ابو قلمون كما كانوا يسمونه) الى حكم إمارته (تلمسان) ودعمه بالاعتدة وبقوة مقاتلة بلغ عدد أفرادها عشرة آلاف مقاتل.

خرج (أبو حمو) من (وهران) في أواخر شهر كانون الثاني- يناير- ١٥١٨، ومعه جموع من الأعراب بالإضافة الى فرقة من الجيش الإسباني، وتمكنت هذه القوة من مباغتة قلعة (بني راشد) بهجوم

قوي لم تصمد له حامية القلعة، على الرغم مما أظهرته من المقاومة الضارية، فاضطرت الى الانسحاب بعد أن تم الاتفاق مع (أبي حمو) على السماح لبقية القوات بالخروج سالمة للتوجه نحو تلمسان. غير أن قوات (أبي حمو) غدرت بالوعد ونصبت كميناً دمرت بواسطته بقية أفراد الحامية التي كانت تدافع عن القلعة.

تابع (أبو حمو) تقدمه نحو تلمسان، وفي هذا الوقت تم إنزال قوة اسبانية أخرى زج بها حاكم وهران، وأنزلها في بلدة (رشقون) الساحلية لدعم الهجوم البري. وسارت هذه القوة بسرعة نحو تلمسان على الطريق الساحلي حيث التقت مع قوات (أبي حمو) على أبواب تلمسان، وضرب حصار قوي ومحكم على المدينة.

تولى الدفاع عن (تلمسان) (القائد عروج) ومعه حاميته الجزائرية- التركية. ووقعت معارك قاسية في ظروف غير متكافئة، وعلى الرغم من التفوق الساحق للاسبانيين وعميلهم (أبو حمو) فقد نجح عروج وحاميته في قيادة وخوض حرب دفاعية يائسة استمرت لمدة ستة أشهر كاملة نجح الاسبانيون بعدها في تدمير أسوار المدينة بالقصف المدفعي المستمر، وأمكن لهم بالتالي اقتحام المدينة، ولم تستسلم الحامية، فانتقلت لخوض الصراع في الأسواق والمنازل، وانسحب بعدها عروج وبقية قواته الى (قلعة المشور) وأعادوا تحصينها وتنظيم الدفاع عنها والتمركز فيها بانتظار وصول دعم من قبل ملك فاس الوطاسي المريني الذي كان قد اتفق مع عروج على دعمه. وقد أرسل الملك المريني جيشاً لدعم عروج ومساعدته على تطوير الدفاع عن تلمسان ضد الاسبانيين وأنصارهم. لكن ذلك الجيش اتبع طريق (مليلة) في تحركه، وهو طريق طويل، فلم يتمكن من الوصول الى

ميدان المعركة في الوقت المناسب، واضطر الى العودة بدون أن يشترك فعلياً بالقتال.

وشددت القوات الاسبانية قبضة الحصار على (قلعة المشور) وتكبدت الحامية خسائر فادحة حتى لم يبق مع (عروج) أكثر من خمسمائة تركي. غير أن ارادة القتال لم تضعف لدى هؤلاء المجاهدين الذين صمموا على متابعة المعركة حتى نهايتها. وجاءت هذه النهاية سريعاً، فقد تقدمت جماعة من المسلمين الى (عروج) في صبيحة يوم عيد الفطر تستأذنه في السماح لها بممارسة عادتها في إقامة صلاة العيد بمسجد (المشور)، ووافق (عروج) على ذلك، وما إن دخلت هذه الجماعة الى الحصن، حتى انتضت سيوفها وأخرجت أسلحتها التي كانت تخفيها في طيات الثياب. وانقضت على الحامية التركية التي بوغتت بهذه الهجمة. فسقط عدد من أفراد الحامية، وتمكن البقية من استعادة سيطرتهم على أنفسهم بسرعة، فأعادوا تنظيم دفاعهم، وانقضوا على هؤلاء الغادرين، ونجحوا في القذف بهم الى خارج الأسوار، وأعادوا تنظيم أمورهم، غير أن الخسائر الفادحة التي تكبدتها الحامية أقنعت عروج بضرورة الخروج من هذا المأزق. فقرر شق طريقه عبر القوات القائمة على الحصار، والوصول الى الساحل حيث تتوافر له فرصة أفضل لجمع الأنصار وتنظيمهم، ريثما يتمكن أخوه (خير الدين) من إرسال قوة دعم بحرية تحمل دعماً جديداً لقواته.

ونظم (عروج) قوته وانطلق بها من (قلعة المشور) حيث اتجه نحو الغرب عبر الممرات الضيقة المؤدية الى الساحل، وعندما وصل الى (جبال بني سناسن) أحاطت به قوة اسبانية تضم خمسين فارساً

بقيادة (غارسيادي لابلازا) ودارت مذبحة ضارية في ظروف غير متكافئة. ودافع (عروج) عن نفسه بثبات وعناد لا يمكن وصفهما- مستخدماً في ذلك يده الوحيدة- حتى لم يبق معه أكثر من عشرة رجال سلكوا مسلكه، وأظهروا مثل ثباته وعناده بعد أن تحصنوا بجدران (زاوية سيدي موسى). وعندما أبيد هؤلاء الرجال العشرة، وقف (عروج) وجهاً لوجه أمام خصمه (غارسيا) واستمرت المبارزة بينهما حتى سقط الاثنان بضربتين قاتلتين متبادلتين.

استشهد (عروج) كأفضل ما يكون عليه الاستشهاد، ومضى الى حيث سبقه أخواه من قبله، وأدى واجبه في الدفاع عن الإسلام والمسلمين حتى آخر نقطة من دمه[1] غير أن حجم الكارثة كان أكبر من كل تصور، فمضى الاسبان في فرحتهم، وخيم الحزن والأسى على مدينة الجزائر. وكانت الصدمه قوية بصورة خاصة بالنسبة لخير الدين الذي عرف حياة الجهاد من خلال أخيه، غير أن شعور أهل الجزائر بالصدمة لم يكن أقل من شعور خير الدين، ذلك أنهم وضعوا آمال مستقبلهم على عاتق (عروج) كما شعروا معه بحلاوة النصر على أعداء الدين. وعرفوا قبل ذلك وبعده أهمية الدور الذي يمكن للمغرب الأوسط (الجزائر) الاضطلاع به في قيادة الجهاد في سبيل الله..

---

(١) انظر قراءات (٣) في آخر الكتاب.

٢ ـ خير الدين على طريق الجهاد

ترددت أصداء كارثة (تلمسان) بقوة في ضمائر أبناء الجزائر الأحرار، واجتمع المسؤولون فيها من الشيوخ والزعماء ـ أهل الحل والعقد ـ لمناقشة الموقف بعد استشهاد (عروج) وقرروا أن يسندوا الى (خير الدين) واجب (إمارة الجهاد) بعد أخيه، وألحوا عليه في ذلك، لكنه اعتذر عن قبول الإمارة، وأعرض عنها، وأبلغ المسؤولين في الجزائر أنه يعتزم السفر الى عاصمة الخلافة (استانبول) على أمل الحصول على اسطول جديد يساعده على متابعة الجهاد في سبيل الله في البحر. وأجابه علماء الجزائر: بأن الله يوجب عليه الجهاد في هذه المدينة ـ الجزائر ـ لحماية المسلمين، وأن الدين لا يسمح له بتركها نهباً للمفترسين، فأجابهم عندئذ بقوله:

«لقد بقيت منفرداً دون أخوتي ـ الذين استشهدوا جميعاً فوق أرض الجزائر ـ وقد رأيتم ما فعله بنا صاحب تلمسان من بني زيان، واستعانته علينا بغير ملتنا حتى كفانا الله أمره. وصاحب تونس الحفصي الذي لا يرى ضرورة نصرتنا وإعانتنا والذي أسلمنا للعدو بمنع البارود عنا ـ أثناء حملة بجاية ـ لولا لطف الله. فالرأي هو أن نصل

أيدينا بالقوة الإسلامية ـ وهو السلطان سليم خان ـ ونعتمد عليه في حماية هذه المدينة، ولا يكون ذلك إلا ببيعته والدخول في طاعته، والدعاء له في الخطب على المنابر، وضرب السكة ـالنقودـ باسمه، لنتفيأ ظل حمايته. فاستكانوا لذلك ورضوا به، وأعلنوا بالدعاء له على المنابر. وكتبوا بذلك للحضرة السلطانية، وبعثوا له من السكة باسمه في الجزائر».

قرر الجزائريون بذلك أن تكون دولتهم الفتية جزءاً من الامبراطورية العثمانية الضخمة، ووافق خير الدين على البقاء مؤقتاً رئيساً لهذه الدولة، حتى يتخذ السلطان العثماني قراره فيما عرضه عليه أهل الجزائر. ويمدهم بما طلبوه من دعم عن طريق الوفد الجزائري الذي ارتحل الى القاهرة، حيث كان السلطان سليم مقيمًا لتنظيم البلاد. وقابل الوفد الذي كان يرأسه الحاج حسين السلطان سليم. وأجابهم على سؤلهم، وأعلمهم بموافقته على أن يشمل دولة الجزائر برعايته. وان تكون مشتركة مع الدولة العثمانية في الجهاد ضد المسيحية. وأضفى على خير الدين لقب (باي لرباي) أي (باي البايات) باعتباره الرئيس الأعلى لكل البايات الذين يتولون، أو سوف يتولون الحكم في بلاد الشمال الأفريقي. وخول السلطان دولة (باي لرباي) حق سك النقود باسمها، وذلك دلالة الاستقلال ضمن الامبراطورية العثمانية.

عمل السلطان سليم بعد ذلك مباشرة على ارسال دعم الى الجزائر يتكون من قوة بحرية محملة بأربعة آلاف مقاتل من المتطوعين الأتراك وكميات ضخمة من الأسلحة والذخائر والتجهيزات الحربية. ووصلت هذه الامدادات الى مدينة الجزائر حيث تم إنزالها على ساحل

(باب الواد). وبدأت القوات الجزائرية استعدادها لمجابهة الأعمال العدوانية المتوقعة.

كان حكم اسبانيا قد انتهى (منذ سنة ١٥١٦) الى الملك شارل الخامس (شارلكان) الذي وضع هدفه الأول بالقضاء على الدولة الجزائرية الفتية، وإزالة ما تمثله من تهديد، وتوطيد الحكم الاسباني في المغرب العربي- الإسلامي. وقد توافرت المعلومات عن قرب احتمال ارسال قوة اسبانية جديدة للجزائر، فزادت أهلها حماسة للقتال واستعداداً للحرب.

وانصرف (خير الدين) لتنظيم أمور الدولة الجديدة في المغرب الأوسط (الجزائر) وحشد القدرات والإمكانات كلها من أجل تأمين متطلبات الحرب التي باتت وشيكة بعد أن استثارت عملية انضمام الجزائر للامبراطورية العثمانية حماسة أوروبا كلها وحماسة اسبانيا المتعصبة منها بصورة خاصة لتطوير الحرب الصليبية.

اغتنم شارلكان فرصة استشهاد (عروج) وما أحدثه ذلك من هزة عميقة في النفوس -بعد انتصار الاسبانيين في (تلمسان) فاتفق مع (أبي حمو- ملك تلمسان) على ان يشترك الطرفان في توجيه الضربة الحاسمة للجزائر، وذلك بان تقوم القوات الاسبانية بإنزال بحري في الوقت الذي تتقدم فيه قوات ملك تلمسان براً. وضمت الحملة الاسبانية في هذه المرة قوة ضخمة تتكون من اربعين سفينة تحمل على متنها خمسة آلاف من المقاتلين الاسبانيين والاوروبيين، ووضعت الحملة تحت قيادة نائب ملك الصقليتين (هوغو دي منكاد) يعاونه في قيادة الحملة (غونزالفو- مارينو- دي ريبيرا). وأبحر الاسطول من جزيرة صقليا في أواخر تموز- يوليو- سنة ١٥١٩، وتوجه الى (المرسى

الكبير) وأخذ منها جنداً وعتاداً. ثم سار في اتجاه بجاية، حيث انضمت اليه قوة ضخمة حملت معها المزيد من الاسلحة والأعتدة، وفي النهاية وصلت الحملة الى مياه الجزائر يوم ١٧ آب - أغسطس -. وبدأت عملية الانزال على امتداد الساحل الواقع إلى اليسار من وادي الحراش.

وقد وضع (خير الدين) مخططه للمعركة على أساس التجربة السابقة التي حالفها النجاح، فقرر افساح الفرصة أمام القوات الاسبانية لإنزال قواتها وتجهيزاتها الى أرض الشاطىء ثم العمل على استنزاف قدرتها القتالية وروحها المعنوية بمجموعة من العمليات الخاصة (الاغارات والكمائن) والانقضاض بعد ذلك على القوات الاسبانية في معركة حاسمة في الوقت المناسب والمكان المناسب.

وهكذا تمكن الاسبانيون من إنزال أسلحتهم ووسائطهم وقواتهم دونما عناء كبير، وأقاموا قاعدتهم خلف (وادي الحراش) وبدأت الاشتباكات بين الطرفين المتصارعين، ثم ما لبث الجيش الاسباني أن أبدأ التحرك بكتلته الرئيسية في اتجاه المرتفعات المحيطة بمدينة الجزائر حتى وصل الى (كدية الصابون) المشرفة على المدينة- من ورائها- وأخذت القوات الاسبانية على الفور ببناء قلعة حصينة فوق تلك الكدية أطلقوا عليها اسم (قلعة الامبراطور)- وهي التي هدمت ورممت مراراً . وكان لها شأن عظيم في تاريخ الجزائر، ولا تزال موجودة حتى اليوم- وجهزوها بالمدافع الثقيلة، ووضعوا الجزائر فعلاً تحت تهديد مدافعهم.

وكانت القوات الاسبانية وهي تشيد معقلها، تنتظر قدوم جيش تلمسان الذي كان من المفروض أن يتولى قيادته (الملك عبد الله

الثاني). وانتظرت القوات الاسبانية طوال ستة ايام بدون ان يظهر ما يشير إلى احتمال تقدم هذا الجيش، وتمت عملية بناء المعقل، فيما كانت الاشتباكات المستمرة تستنزف قدرة القوات الاسبانية وتضعف من روحهم المعنوية، وإذ ذاك قرر القائد الاسباني القيام بهجوم عام على مدينة الجزائر.

وقرر (خير الدين) تكوين قوة من خمسمائة مجاهد واجبها الإغارة على المعسكر الاسباني (المجاور لوادي الحراش) والذي لم يترك الاسبانيون لحراسته الا قوات قليلة. ومن ثم الاغارة على السفن وتدمير ما يمكن تدميره منها. وتوجهت هذه القوة ـ المنتقاة من خيرة المجاهدين ـ فأبادت حرس المعسكر وأشعلت النار في القوارب التي تصل الاسطول بالبر، وأخذت هذه القوة بتهديد السفن الواقفة في عرض البحر.

كان القائد الاسباني يتابع من موقعه في (كدية الصابون) تطور هذه العملية التي تهددت خط المواصلات البحري للقوات الاسبانية. ونجحت العملية الخداعية التي خطط لها خير الدين، إذ توجهت قوة كبيرة من الاسبانيين نحو البحر في محاولة لإنقاذ القوارب والسفن. وانقسمت القوة الاسبانية بذلك الى قسمين. ففتح المجاهدون أبواب الجزائر بصورة مباغتة، وانطلقت حشودهم كالسيل الجارف وهم يدمرون القوات الاسبانية ويجتاحونها من كل اتجاه. وهيمن الاضطراب على القوات المعادية، وفقدت قيادتها السيطرة وباتت معزولة وعاجزة عن إدارة المعركة. فيما كان المجاهدون يدمرون بسيوفهم ونيران بنادقهم كل من يصادفهم، وأصبحت القوات الاسبانية ممزقة على شكل جزر مقاومة في وسط محيط المجاهدين

الواسع، بحيث لم تتمكن إلا فلول ممزقة من الوصول الى القوارب والسفن.

واستمرت المعركة بكل قسوتها طوال يوم ٢٠ آب (أغسطس) سنة ١٥١٩م (٩٢٥ هـ) وأمكن لبقية القوات الاسبانية- وفلولها الممزقة ركوب البحر والوصول الى السفن. وهنا جاءت الطبيعة من جديد لتتدخل في مصلحة المجاهدين الجزائريين. إذ هبت عاصفة عاتية يوم ٢١ (آب) اغسطس ووصلت ذروتها في اليوم التالي عندما تحولت الى اعصار مدمر أرغم (٢٤) سفينة اسبانية من سفن الأسطول على اللجوء الى الجزائر حيث وقعت هذه السفن غنيمة في أيدي المجاهدين- بكل من فيها وما فيها من مقاتلين وأعتدة. وانتهت هذه المعركة يوم ٢٤ آب - أغسطس - بانتصار المسلمين انتصاراً كاملاً.

وأغرقت مياه البحر أربعة آلاف من المقاتلين الاسبانيين، ووقع في قبضة الأسر ثلاثة آلاف مقاتل وقد حاول هؤلاء تنظيم صفوفهم والانقضاض على المسلمين فتمت إبادتهم إبادة كاملة وبذلك دمرت الحملة التي أرسلها شارلكان تدميراً كاملاً. وخابت آمال الاسبانيين والأوروبيين بهذه الحملة الصليبية.

خلال ذلك حدثت تحولات على مسرح المغرب العربي- الاسلامي، فقد كان الملك الزياني (أبو حمو الثالث) قد توفي في سنة ٩٦٤ هـ = ١٥١٨م- أي في ذات السنة التي استشهد فيها عروج وخلفه على حكم مملكة تلمسان أخوه (عبد الله الثاني) الذي اتبع سياسة جديدة قائمة على الحياد تجاه الصراع الجزائري - الاسباني، والاعتماد على خير الدين - لا على الاسبانيين - إذا كان لا بد من الاعتماد على أحد الطرفين. ولم تكن هذه السياسة الا استجابة

لتطلعات المواطنين في تلمسان الذين كانوا يرفضون نصرة أعداء الدين ضد أبناء دينهم وإخوانهم من الجزائريين والأتراك العثمانيين. وانتهج (مسعود) شقيق (عبد الله الثاني) هذه السياسة ذاتها عندما طرد أخاه من تلمسان. وكان ذلك هو سبب إحجام ملك تلمسان عن ارسال جيشه لدعم الاسبانيين عندما قاموا بتنفيذ حملتهم ضد الجزائر. غير أن انتصار خير الدين وقوات المسلمين ذلك الانتصار الحاسم، أثار قلق سلطان بني حفص بتونس، خوفاً من القوة المتعاظمة في المغرب الأوسط (الجزائر) وندم على ما فاته من نصرة الاسبانيين، فكتب الى (صاحب تلمسان) يحذره من القوة المتعاظمة لخير الدين وبذلك عاد (محمد بن الحسن - الحفصي) للتآمر ضد المسلمين خوفاً على نفوذه ومملكته في تونس من أن تطالها قوة المسلمين المتحالفين في الجزائر مع الامبراطورية العثمانية.

وأعاد (خير الدين) تنظيم مملكة الجزائر، فقسمها الى قسمين: قسم شرقي يمتد من شرقي العاصمة الجزائرية حتى حدود المملكة الحفصية بتونس وتشمل بلاد القبائل الجبلية، ووضع على رأس هذا القسم أخوه في الجهاد وصديقه (أحمد بن القاضي الغبريني - سلطان كوكو ببلاد زواوة، حيث كانت بلدة كوكو تقع على بعد (١٨) كيلو متراً في الجنوب الشرقي من مدينة أربعاء بني براثن). أما القسم الغربي، فكان يمتد من الجزائر الى حدود دولة بني زيان- غير المحددة بدقة- ووضع لإدارته (محمد بن علي).

وظن (خير الدين) أن باستطاعته الاعتماد في إدارة القسمين على الزعيمين المحليين لحكم البلاد. وترك لمدينة الجزائر السلطة العليا، ومباشرة أمور الحرب والسياسة. غير أن هذا التنظيم أثار نقمة

(عبد العزيز) ملك قلعة بني عباس، والعدو اللدود (لأحمد بن القاضي)، إذ أن هذا التنظيم وضع عدوه أميراً عليه وحاكمًا في جهته، فحمل لواء العصيان، وأعلن تبعيته للملك الحفصي بتونس. غير أن التهديد الخطير لم يظهر من (عبد العزيز ـ ملك قلعة بني عباس) بقدر ما ظهر من (أحمد بن القاضي الغبريني ذاته) والذي ما إن شعر بقوته حتى انقاد لتيار المؤامرات. فأعلن تمرده على (خير الدين) وانضم الى الحفصيين ملوك تونس معتمداً على ما يقدمونه له من الدعم والتأييد.

وأسرع (خير الدين) فقاد قواته لقتال (ابن القاضي) وخاض ضده معارك ضارية في جبال زواوة المنيعة الشامخة، واضطر (خير الدين) للتراجع حتى (عنابة) ثم تلقى (ابن القاضي) دعمًا من السلطان الحفصي بتونس، فطور أعماله القتالية، وأثار سكان الجبال ضد (خير الدين) وتدهور الموقف الى درجة خطيرة بحيث وجد خير الدين نفسه مرغمًا على الخروج بنفسه لقتال صديقه القديم. ولم يكن يمتلك من القوى ما يساعده على مجابهة قوات الحفصيين المتحالفة مع ابن القاضي وهكذا فعندما وقعت المعركة في (فليسة أم الليل) وقف خير الدين وليس معه إلا الجنود الأتراك الذين أبيدوا إبادة تامة، ولم ينج خير الدين وبعض رجاله إلا بصعوبة كبيرة، فانسحب بهم الى قاعدته القديمة (جيجل) ليجد فيها ملاذه الوحيد. وأرسل الى الجزائر فطلب اسطوله وأسلحته وكنوزه. في حين تابع (ابن القاضي) تقدمه في سهل متيجة (متوجة). وأعمل في القرى تدميراً ونهباً. حتى وصل الجزائر. فجعلها قاعدة له. واستمر في حكم الجزائر مدة ستة اعوام (١٥٢١ - ١٥٢٧).

وخلال هذه الفترة، كادت تتفتت تلك الرابطة التي أحكم

(خير الدين) صنعها وشكل منها دولة الجزائر. غير ان حكم (ابن القاضي) تميز بالرعونة والقسوة، مما أثار الفوضى والاضطراب في كل مكان، وكان في ذلك مصرعه.

انصرف (خير الدين) لإعادة تنظيم أموره في قاعدته (جيجل) متنقلاً ما بينها وبين (جزيرة جربة) وقد أمكن له بما عرف عنه من كفاءة قيادية عالية، وهمة لا تعرف الفتور أو ينال منها التعب. أن يشكل قوة جديدة، وأن يتابع نشاطه البحري بصورة ناجحة. وتعاظمت قدرة جيشه الجديدة. وهنا حدث تحول جديد، إذ وجد عدوه القديم (عبد العزيز ملك قلعة بني عباس) أن من مصلحته التحالف مع (خير الدين) ضد العدو المشترك (ابن القاضي) والذي كان في الأصل هو سبب العداء فيما بينهما. فبرز الى الميدان من جديد، واسترجع مدينة (القل) وانضمت اليه مدينة (قسنطينة) وجاءته جموع الشعب المجاهد مؤيدة ومناصرة، فسار بها نحو الجزائر. وقاد (الشيخ أحمد بن القاضي) قواته بسرعة، فغادر الجزائر لملاقاة خصمه بين مرتفعات جبال القبائل. والتقت القوتان المتصارعتان عند (ثنية بني عائشة) فدارت الدائرة على (ابن القاضي) وتمزقت قواته حتى لم يبق معه الا قلة من أنصاره الذين أدركوا ما خسروه من خلال التمزق الذي صنعه قائدهم (ابن القاضي) فقرروا التخلص منه. وجاءت فئة منهم خيمته عند غروب الشمس فقتلوه، وانتهت في سنة (١٥٢٧) تلك الفتنة التي أضعفت الجزائر الى حد كبير.

لم يكن (خير الدين) بعيداً عن مسرح الأحداث، فأسرع بقيادة قواته، متوجهاً بها الى الجزائر، حيث استقبلته جماهير الشعب المسلم استقبال الفاتحين. بعد أن عملت بارادتها على تدمير (أعداء

الداخل). وأقيمت الاحتفالات الضخمة بمناسبة هذا النصر. ولم يستمر الصراع طويلاً بين الجانبين، إذ عملت القبائل على إعادة توحيد إرادتها من جديد. وجاء (الحسين بن القاضي- شقيق الشيخ أحمد) والذي تولى الإمارة بعد مقتل أخيه، فوضع نفسه تحت تصرف (خير الدين). واستسلم في سنة (١٥٢٩) استسلاماً غير مهين تقبله (خير الدين) بالتقدير والاحترام.

وانصرف (خير الدين) لتضميد الجراح التي خلفتها الفتنة الهوجاء، وعمل على إعادة تنظيم الدولة، وشكل الجيش وسلحه بطريقة أفضل مما كان عليه في السابق، وحشد اسطوله الضخم في الجزائر بعد أن ضم اليه ما كان قد غنمه في جهاده البحري خلال الفترة السابقة، وما لبثت الجزائر طويلاً حتى استردت قوتها، وظهرت من جديد وهي تمتلك كل القدرات الضرورية لمتابعة الجهاد في سبيل الله، حيث توافرت لها إرادة جماهيرية - شعبية - صلبة، وجيش قوي منظم في البر والبحر، وإرادة قيادية صلبة تعرف هدفها وتضطلع بواجبها على أفضل صورة ممكنة.

أ- بناء الجزائر والجهاد في البحر

كان وجود الحامية الاسبانية في (جزيرة الصخرة - صخرة الجزائر) أمر يتناقض مع ما تتطلبه مدينة الجزائر من (الأمن). فقرر (خير الدين) بعد أن تم له تنظيم الأمور العمل على تحريرها. وهكذا أخذت المدفعية الجزائرية بقذف قنابلها الحديدية من مرابضها التي تم تشييدها على مسافة مائتي متر فقط من جدران المعقل الاسباني، وذلك في شهر رمضان ٩٣٦ هـ (٦ ايار - مايو - ١٥٢٩). وأمر (خير الدين) بتجهيز كل السفن الحربية وشحنها بالرجال والعتاد، وأذاع في

كل مكان أنه سيبحر الى السواحل الاسبانية من أجل الغزو والجهاد. وخرجت السفن فعلاً من وراء صخور الجزائر، وأخذت طريقها نحو الشمال، لكن تلك السفن عادت ادراجها تحت جنح الظلام، واختبأت في مرفأ (نتغوس) المقابل للجزائر على الطرف الآخر من الخليج. وكان معقل الصخرة حصيناً جداً، وقد بذل الاسبانيون جهداً كبيراً لتحصينه وزيادة قوته، وأقاموا فيه مستودعات ضخمة من الأسلحة والأعتدة والمواد التموينية حتى تتمكن حاميته من الدفاع عنه لمدة طويلة.

لم تتمكن الرمايات الأولى من التأثير كثيراً على تحصينات المعقل وأسواره، وفي يوم الخميس ٢٢ أيار (مايو) فتحت بطاريات المدفعية الجزائرية المتمركزة في المدينة نيرانها بكثافة عالية. واستمر القصف طوال يوم الخميس وليل الجمعة بكاملها حتى الفجر، ثم صمتت المدفعية. وظن أفراد الحامية الاسبانية أن العملية قد انتهت، وأنه باستطاعتهم أخذ قسط من الراحة، وفي تلك الفترة بالذات كان الاسطول الجزائري يخترق الخليج من ناحية (تاما ـ نتغوس) تتقدمها تلك السفينة الضخمة التي كان خير الدين قد غنمها من (البنادقة ـ دولة البندقية) وشحنها بالسلاح والرجال. وأحاطت السفن بالجزيرة من الشرق والغرب. وعندما تنبه الحرس والمراقبون في القلعة لحركة القوات الإسلامية، وأطلقوا النفير لاستنفار القوات، كان الوقت متأخراً جداً. إذ ما لبث المجاهدون حتى غادروا سفنهم وقاموا بالإنزال فوق أرض المعقل، وهاجموا الحصن بإغارة مباغتة وتمكنوا من اقتحامه.

دارت بعد ذلك معركة قصيرة وحاسمة، سقط فيها (٦٥)

مقاتلاً من الاسبانيين وأنصارهم وخسرت قوات المسلمين (١١) تركياً و(٣٥) عربياً. وأسر المسلمون من الاسبانيين (٩٠) جندياً و(٢٥) من النساء والاطفال. وكان قائد معقل الصخرة (مارتينو دي فاركاس) بين الأسرى. وقد حاول التستر على المخبأ الذي أودع فيه مقداراً من المال، فتعرض للتعذيب حتى استخرج الأموال التي بلغت ألفي دوقة (٤٨) ألف دينار جزائري. ثم جعلوه بعد ذلك على بقية الأسرى، الذين كلفوا ببناء منارة مسجد خير الدين، الذي كان قد بديء ببنائه في العاصمة الجزائر. وقسم (خير الدين) الأسرى الى قسمين تم تكليف القسم الأول بتدمير التحصينات التي أقامها الاسبانيون في جزيرة الصخرة (أبنيون) فيما تم تكليف القسم الثاني ببناء المسجد ورفع مئذنته.

وما كادت هذه العملية تتم حتى ظهرت في الأفق سفينة اسبانية ضخمة تحمل على ظهرها قوة تتكون من سبعمائة محارب علاوة على الأسلحة والإمدادات المختلفة. وكانت أبراج الحراسة الجزائرية تتابع ـ بالمناظير المقربة ـ تحرك هذه السفينة وهي تقترب من معقل الصخرة. ولم تلبث سفن المجاهدين أن انقضت عليها وأسرتها، واقتادتها الى ميناء الجزائر.

وقرر (خير الدين) تحصين الجزائر، فأمر جماعة الأسرى بنقل الصخور والحجارة التي تراكمت من أنقاض معقل الصخرة، وذلك لوصل البر بجزيرة اصطفلة تحت اشراف معلمي البناء الجزائريين. كما أرسل السفن الى الجهة المقابلة نحو الخليج عند مرفأ «تامانتغوس» فجاءته بصخور رومانية قديمة لإكمال العمل. وبذلك أمكن بناء



الأسطول الجزائري يعود بالغنائم

الجسر العريض الذي لا يزال يحمل حتى اليوم اسم (جسر خير الدين) والذي وصل بين الجزر العشرين بعضها ببعض ببناء دائري متين، ليست فيه الا فتحة واحدة[1] وهكذا تم إنشاء مرسى مدينة الجزائر العتيق (الذي يعرف اليوم باسم ـ الجفنة) والذي أصبح مقراً للاسطول الجزائري يحميه من العواصف التي تحملها رياح الغرب.

وما إن حقق خير الدين انتصاره العظيم بتحرير جزيرة (أبنيون) حتى أعلن: «**أن من كان يؤمن بالله ورسوله، ويريد الجنة في الدار الآخرة، فعليه أن ينضم الى جيشه بكل سرعة، وذلك لمهاجمة وهران والمرسى الكبير**». وانصرف الاسطول الاسلامي أثناء ذلك للجهاد في البحر، وكان الاسطول الجزائري يشمل (١٥) سفينة من نوع (القالير) وقد ألقى الرعب والهلع في قلوب سكان السواحل

---

(١) جاء في كتاب (الجزائر) سلسلة الفن والثقافة (٨) الصادر عن وزارة الاعلام والثقافة ـ الجزائر ـ ص ٢٢ و ٢٥ ـ ٢٨ ما يلي: «وبذلك كان مولد ميناء الجزائر الذي رغم أبعاده المحدودة، أرعب البلدان العدوة خلال ثلاثة قرون، ففيما يعرف الآن بمرفأ الامارة البحرية، كان يستقر اسطول الجزائر الذي كان يضم اذ ذاك حوالي سبعين باخرة، وكانت هذه البواخر تحمل أسماء مختلفة عليها مسحة رومنسية مثل (المرعب) و (الوردة الذهبية) و (مفتاح العالم) و (صقر البحار). وقد تم تحسين الجهاز الدفاعي ببناء سور يمتد على مسافة ثلاثة كيلومترات، به عدة أبراج للحراسة، واستمر بناء السور المحيط بالمدينة حوالي (٨٥) سنة. كما تم بناء المنازل العديدة لإسكان المواطنين المتزايد عددهم أكثر فأكثر وكان الدخول الى المدينة يتم عن طريق خمسة ابواب رئيسية. باب الواد شمالاً، وهو يربط المدينة بالخارج وبالمقبرة. وباب عزون جنوباً، وهو يحظى بتردد اكثر لانه يطل على متيجة (متوجة) ويسهل النشاطات التجارية. وباب البحرية أو باب الجزيرة الذي يشرف على الميناء، أما باب الترسانة أو باب الصيادين، فانه يؤدي الى دار الصناعة حيث تبنى السفن الشراعية الصغيرة، واخيراً باب جديد الذي ينفتح على قلعة القصبة، وهي القلعة الضخمة الواقعة في قمة المدينة، وكانت هناك ابراج اخرى تكمل الجهاز الدفاعي على البحر مثل (برج الفنار ـ أو برج المنارة) الذي شيده خير الدين».

الاسبانية، إذ أمعن فيهم حرباً وتدميراً وسبياً الى درجة أن السكان تركوا قراهم وهجروها والتجأوا الى داخل البلاد. ومقابل ذلك، كانت بقايا المسلمين الأندلسيين تشعر بالبهجة لهذه الانتصارات التي بعثت الأمل في نفوسهم، وعوضت عليهم بعض ما يلقونه من قهر واضطهاد.

وتلقى قائد الاسطول الاسباني وفي سنة (١٥٣٠م) أمراً امبراطورياً بأن يتقدم لمهاجمة الاسطول الاسلامي وتدميره. فاستعد الأميرال (أفريدريكو بورـ توندو) للحملة الصليبية الجديدة. وانطلق بقوة (١٢) سفينة حربية ضخمة لمطاردة اسطول (خير الدين) الى أن وجده بين جزيرتين من جزر الباليثار. وظن الأميرال الاسباني أن الموقف لمصلحته، فهاجم الاسطول الجزائري بقوة وعنف، وقذفه بنيران مدافعه. غير أن الاسطول الإسلامي تلقى الصدمة بثبات، ووجه (خير الدين) على الفور هجوماً مضاداً ركزه على سفينة القيادة الاسبانية. وقاد (خير الدين) سفينته بنفسه، وانطلق بها كالسهم حتى وقف بمحاذاة الهدف، وقفز المجاهدون على ظهر السفينة الضخمة وسيوفهم تلتمع في أيديهم. ودارت معركة عنيفة قتل خلالها قائد الاسطول الاسباني وقسم كبير من أفراد سفينته، ووجه (خير الدين) هذه السفينة نحو بقية سفن الاسطول الاسباني، واستمرت الهجمات السريعة، فتم أسر بعض السفن الاسبانية وحرق بعضها الآخر وإغراق عدد منها. وانتهت معركة اليوم بتدمير الاسطول الاسباني تدميراً كاملاً بحيث لم تنج منه الا سفينة واحدة استطاعت الفرار لإعلام قيادتها عن المجزرة الرهيبة التي قضت على الاسطول. وانسحب الاسطول الجزائري بعد أن ضم اليه الغنائم والأسلاب التي كسبها من المعركة.

أثارت معركة جزر الباليئار مناخاً من الفزع الذي تجاوز حدود اسبانيا. فبادر (شارلكان) الى معالجة الموقف بحزم. وعمل على إعادة تنظيم اسطوله وأسند قيادته الى ضابط مغامر كان قد اكتسب شهرة واسعة في قيادته للاساطيل البحرية وممارسة أعمال القرصنة. وكان هذا الضابط هو (الأميرال اندريا دوريا)[1] الذي كان يعتبر باستمرار ان (خير الدين) هو عدوه اللدود.

انصرف (أندريا دوريا) الى مدينة جنوة من أجل تنظيم اسطوله، وأمضى سنة (١٥٣٠) في الاستعداد لحملته الضخمة القادمة. ثم غادر المرسى الايطالي الكبير في تموز (يوليو) سنة (١٥٣١) على رأس اسطول يضم عشرين سفينة تحمل ألفاً وخمسمائة من المقاتلين الأشداء، وسار بهم نحو الساحل الجزائري وقد حدد هدفه بتدمير الأسطول الاسلامي كمرحلة أولى، ثم الانطلاق من مركز بجاية في الشرق ومركز وهران والمرسى الكبير في المغرب لخنق الدولة الجزائرية، ووضع المغرب العربي الإسلامي بكامله تحت الحكم الكاثوليكي- الاسباني.

---

(١) ورد في كتاب - حرب الثلاثمائة سنة - احمد توفيق المدني ص٢٢٠-٢٢١ تعريفاً بهذا الاميرال كما يلي: «اندريا دوريا هو سليل بيت من اكبر بيوتات مدينة جنوة الايطالية وأمجدها. وقد ورث عن أبيه وعن جده حب المغامرة البحرية وعشق الأمواج واقتحام الأخطار بين الشراعات المنشورة والزوابع الثائرة، وهدير المدافع ولمعان السيوف. ولم يكن يهمه هوية الشخص الذي يعمل تحت رايته، على شرط أن يكون مسيحياً مقاتلاً. فعمل أولاً تحت لواء مدينة جنوة ثم خدم ملك فرنسا- فرانسو الأول- الذي سلمه قيادة اساطيله، الى أن صدرت عن الملك الافرنسي بادرة أساءته، فاعاد اليه سنة ١٥٢٩ القلادة التي سلمها له رمزاً للقيادة، ودخل في خدمة الامبراطور (شارلكان) الذي كان يحكم يومئذ أضخم دولة مسيحية في اوروبا وأقواها.

كان (خير الدين) يتابع جهود عدوه (أندريا دوريا) باستمرار، وعندما علم باقتراب ركوبه البحر جمع أسطوله الذي كان يضم أربعين سفينة، وحشد قواته، واستنفر الحاميات، وأخذ في الاستعداد للمعركة. غير أنه كان يجهل محور تحرك الأسطول المسيحي بقدر جهله لما كان يعتزم خصمه تنفيذه. ولم يبق أمامه الا الانتظار ريثما يحدد لمكان الذي يختاره عدوه مسرحاً لعملياته.

حدد (أندريا دوريا) مدينة شرشال هدفاً مباشراً لهجومه، وكان يعرف أن حامية هذه المدينة مكونة من أبنائها مع عدد محدود من الأتراك العثمانيين. وكانت هذه الحامية ضعيفة بالمقارنة مع قوة اسطوله حتى لو انضم لدعمها المجاهدون من القرى والمراكز المجاورة وإنها والحالة هذه لا تستطيع الصمود لفترة طويلة. بحيث أنه يستطيع اذا ما تم له احتلالها، الاستقرار فيها وتنظيم حامية قوية فيها للدفاع عن قلعتها، وبذلك يصبح (خير الدين) عاجزاً عن مهاجمته او إخراجه من هذه القاعدة.

وكانت مدينة شرشال يومئذ مركزاً من أكبر مراكز الدولة الجزائرية الحديثة، وقد عرف (عروج) أهمية موقعها الممتاز فعمل على تحصينها، وشيد فيها قلعة قوية، وأقيم فيها مصنع لتأمين متطلبات الجيش الاسلامي وإمداده بالأعتدة والمواد التموينية، كما أقيم فيها مصنع للأخشاب يعتمد على غابات (الونشريس) والغابات الكثيفة التي كانت قريبة منها. وكانت شرشال بحكم موقعها الطبيعي - وهي لا تبعد عن مدينة الجزائر الواقعة الى شرقها بمسافة إلا ١٢٠ كيلو متراً، ووهران الواقعة الى غربيها- تشكل تهديداً مباشراً للجزائر اذا ما أمكن للأسطول الاسباني احتلالها تمهيداً لعملياته التالية.

استيقظت الحامية الاسلامية المدافعة عن (شرشال) فاذا بالاسطول الاسباني يتقدم من الأفق ويقترب بسرعة نحو مدينتهم، فاجتمع القادة على عجل، وتقرر إخلاء البلدة من سكانها على الفور، وحشد كل القوى في القلعة للدفاع عنها، واستنزاف قدرة العدو لأطول مدة ممكنة ريثما يصل الدعم من الجزائر ومن داخل البلاد.

انزل (اندريا دوريا) قواته على أرض شرشال بدون مقاومة تذكر، وتركزت الحامية الاسلامية ومن معها من المجاهدين في معقل القصبة، وأخذوا في متابعة تحركات العدو بيقظة وحذر.

وبادر الاسبانيون بالبحث عمن بشرشال من أسرى النصارى، وكانوا نحواً من ثمانمائة، فوجدوا مخابئهم وأخرجوهم، وضموهم الى الجيش، وعمل هؤلاء الأسرى كادلاء نظراً لمعرفتهم بديار كبار القوم وبالأماكن التي تضم مخابىء الأموال ونفائس الذخائر، وانتشر الجيش الاسباني وراء الأسرى، وتحول الى عصابات للنهب والسلب. وأخذت زمر منه في التوغل الى داخل الديار حتى وصل بعضهم الى الحدائق والمزارع المحيطة بالبلدة. وأيقنت القيادة الاسلامية ساعتئذ انه بات بالإمكان الانتصار على هذه الفرق الممزقة بعزل بعضها عن بعض وتدمير كل قوة منها على حدة. ففتحوا ابواب القلعة، واندفعوا وهم يرددون صيحة حرب المسلمين (الله أكبر) وأحاطوا بالعدو من كل جانب، وحالوا بين تجمع هذه الفرق والتقاء بعضها مع بعض، كما حالوا بينها وبين البحر، في حين كانت مدفعية القلعة تقذف قطع الاسطول الاسباني بنيرانها وقذائفها. فاختل نظام العدو، وسادت الفوضى والاضطرابات في صفوفه، فيما كانت نيران الجزائريين وسيوفهم تدمر قوة الغزاة، بحيث لم تغرب شمس ذلك اليوم حتى

انتشرت فوق أرض شرشال جثث ألف وأربعمائة من الاسبانيين، بالاضافة الى ستمائة أسير وقعوا في قبضة المجاهدين. ولم يتمكن من الوصول الى السفن أكثر من ثلاثمائة رجل من بقايا القوة الاسبانية ومن الاسرى الذين تمكنوا من النجاة.

ووقف (أندريا دوريا) ذاهلاً أمام قوة هذه الصدمة، وتلكأ في الرحيل عن شرشال وهو لا يدري الى اين يتجه ولا ماذا يعمل. وعندها وصله إنذار باقتراب اسطول الجزائر مسرعاً تحت قيادة (خير الدين)، وعرف (دوريا) أنه لا قبل له بمنازلة خصمه في مثل هذه الظروف فقرر مغادرة أرض المعركة بسرعة لحماية ما بقي لديه من القوة. وعندما وصل خير الدين الى شرشال وعرف نتيجة المعركة، انطلق باسطوله لمطاردة خصمه، الذي كان أسرع منه في التحرك فلم يتمكن من اللحاق به. غير أن هذه المطاردة لم تكن محرومة من الثمار. إذ عثر خير الدين على سفينتين اسبانيتين كانتا محملتين بالأعتدة والمواد التموينية، فاستولى عليهما واقتادهما.

ترددت أصداء هذا الانتصار بقوة وانعكست على مختلف دوائر الصراع بأشكال مختلفة. فقد أصبح الشعب في الجزائر أكثر ثقة بقدراته وامكاناته، وباتت الجماهير الخاضعة لحكم (بني زيان) في تلمسان تنتظر لحظة تحررها للانضمام الى مسيرة المجاهدين في سبيل الله.

وأصبحت الامبراطورية العثمانية أكثر استعداداً لدعم (خير الدين) من أجل طرد اعداء الدين من المغرب العربي الاسلامي.

وأصبحت المملكة الاسبانية وامبراطورها شارلكان أكثر تصميمًا على تجهيز حملة قوية يتم بواسطتها التعويض عن الهزائم

السابقة. والتي نالت من هيبة الامبراطورية التي فرضت ذاتها على زعامة الغرب لقيادة الحرب ضد المسلمين.

ونتج عن ذلك تعرض المسلمين في الأندلس لمزيد من القهر والاضطهاد بعد أن تجمعوا فوق بقعة محدودة ما بين ساحل البحر وجبال البشرات. فارتفعت أصوات الاستغاثة التي لم يعد باستطاعة خير الدين تجاهلها أو التنكر لها، لا سيما وأنه تولى انقاذ المسلمين في الأندلس ومساعدتهم يوم لم يكن يمتلك إلا امكانات محدودة، فكيف به وهو يمتلك اليوم امكانات أرهبت أكبر دولة أوروبية.

وهكذا مضى (خير الدين) ومعه (٣٦) سفينة حتى بلغ السواحل الاسبانية التي التجأ اليها المسلمون، ولم يجرأ الاسطول الاسباني التعرض لأسطول (خير الدين) فأخذ هذا على سفنه أكبر عدد من الراغبين في الحفاظ على دينهم وكرامتهم. وكان يترك أكبر عدد من بحارته الجزائريين فوق الأرض الأندلسية حتى يحمل مقابلهم عدداً من النازحين. حتى إذا ما أوصلهم الى الجزائر، عاد الى اسبانيا ليأتي بغيرهم، وكرر غدوه ورواحه بين الساحلين سبع مرات متوالية حتى تمكن من إنقاذ سبعين ألفاً من رجال الأندلس ونسائهم واطفالهم، واشتد بهؤلاء ساعد المسلمين الذين نزلوا بمدينة الجزائر وسهل متيجة (متوجة) وعمروا مدناً مثل البليدة ودلس وأدخلوا الى البلاد بقايا حضارتهم العريقة وصناعتهم وفنونهم وخبراتهم المختلفة.

عمل (خير الدين) بعد ذلك على تطوير صراعه، فاتخذ من جزائر (هيار)[1] الأندلسية قاعدة لعملياته في غرب المتوسط والمحيط

---

(١) جزائر هيار: (ILES D'HYERES) مجموعة جزر تشكل ارخبيلاً في البحر =

الأطلسي، حيث كانت السفن الاسبانية والبرتغالية تحمل وهي عائدة من أمريكا الجنوبية، ذهب الهنود الحمر وثرواتهم. فركز خير الدين وقادته جهودهم لحرمان اسبانيا من هذه الثروة ووضعها في خدمة المسلمين ليتقووا بها على أعدائهم.

وجمع (خير الدين) حوله نخبة من الرجال جعلهم هيئة قيادته، ومنهم ابنه (حسان خير الدين) و(طورغود رايس) و(صالح رايس- موحد الأرض الجزائرية فيما بعد) و(سنان منقذ تونس فيما بعد أيضاً) و(محمد حسن آغا)[1] الذي جعله نائباً عنه أثناء غيابه عن الجزائر.

واشتدت الحرب الصليبية ضراوة بين الامبراطورية العثمانية وأوروبا التي تتزعمها الامبراطورية الاسبانية. وتبع ذلك تصعيد في الصراع البحري الذي تولى قيادته (اندريا دوريا). ورد السلطان سليمان على ذلك بتعيين (خير الدين) اميراً عاماً على البحر (قبودان باشا) مع بقائه على رأس دولة الجزائر.

ب- خير الدين- أميراً عاماًللاسطول العثماني

كان لا بد للأمير (خير الدين) من التوجه الى عاصمة

=الأبيض المتوسط، وهي حالياً تابعة لفرنسا وتشمل جزيرة (بوركورول: PORQUEROLLE) و (بورت كروس: PORT - CROS) وجزيرة الشرق ILE DE LEVANT وجزيرتين صغيرتين.

(١) محمد حسن آغا: يقال إن أصله كان عبداً خصياً من جزيرة سردينيا، تولى خير الدين تربيته تربية اسلامية متينة، وأشرف على تعليمه وتثقيفه، ولم تلبث مؤهلاته أن تفجرت عن كفاءة قيادية عالية فكان يتولى ادارة الجزائر أثناء غياب (خير الدين). وقد بذل جهده لتحصين الجزائر تحصيناً حولها الى قلعة شامخة، كما انجز بناء مرسى الجزائر. وافاد من موجات النازحين الاندلسيين لبناء عاصمة الدولة الجديدة (الجزائر) فاقام فيها القصور الشامخة على الطراز الاندلسي ونظم الحدائق واكثر من بناء المساجد.

الإمبراطورية العثمانية، فخلف نائبه (محمد حسن آغا) على ولاية الجزائر. وسار تواً نحو (استانبول) على رأس جزء من الأسطول يتكون من عشرين سفينة وهناك، في دار الخلافة والسلطنة، استقبل السلطان سليمان القانوني أمير بحره (خير الدين) استقبالاً يليق بأفضل المجاهدين وأكبر قادة المسلمين.

ولم يغادر (خير الدين) عاصمة الامبراطورية، إلا وقد تولى لأول مرة قيادة أسطول ضخم يتكون من ثمانين سفينة، علاوة على سفن الأسطول الجزائري وبات بإمكان (خير الدين) مجابهة التحديات المتعاظمة للأسطول الصليبي- الاسباني.

ومن جهة أخرى أخذت الأمور في التدهور بسبب سوء إدارة الحفصيين (بتونس). وكان الملك قد انتهى فيها الى (السلطان محمد) الذي خلف أباه (محمد بن الحسن) على العرش الحفصي، والذي وصفته المصادر التاريخية بما يلي: «كان محمد بن الحسن مشتغلاً باللهو والخمر، مهملاً لأمور الملك، وترك خمسة وأربعين ذكراً. خلفه منهم الحسن، فقتل اخوته، ولم ينج منهم إلا (الرشيد وعبد المؤمن) لغيبتهما، واشتغل - مثل أبيه - بالخمور والفجور، وجمع حوله أكثر من أربعمائة غلام أمرد. فمالت عنه الأمة الى الرشيد. ولجأ الرشيد الى خير الدين صاحب الجزائر، واستعان به على حرب أخيه. وما كاد السلطان يطلع على حقيقة الحالة (بتونس) ويدرك أن هذه المدينة التي انحصر فيها ملك بني حفص، هي نقطة الضعف في التنظيم الإسلامي الجديد، وأن العدو يوشك أن ينقض عليها ليستخدمها مع طرابلس، لضرب هذا الجهاز ومحاولة تقويضه، حتى أمر خير الدين بالسير تواً نحو تونس، وإبعاد هذه الأدران عنها». وصل الأسطول

العثماني الذي تولى قيادته خير الدين الى عنابة في شهر آب -أغسطس- (١٥٣٣م) وأخذ منها دعمًا جاءه به نائبه (حسن آغا) ثم تقدم نحو (بنزرت) براً، ونحو (حلق الوادي) بحراً، فتمكن منهما بدون عناء، ووقف على أسوار مدينة (تونس) ففتحت له أبوابها، واستقبله أهلها استقبالاً رائعا عبر فيه الأهالي عن تطلعاتهم وآمالهم.

وجمع (خير الدين) حوله الأعراب الذين انساقوا في تيار الفوضى وإثارة الفتن ووحدهم في تيار الجهاد. كما كتب الى الأعراب وحذرهم سوء عاقبة الفتنة في الإسلام. وأجابوه الى ذلك، غير أنهم اشترطوا عليه الابقاء في أيديهم على ما أعطاه لهم بنو حفص من الاقطاعات، فالتزم لهم بذلك، واشترط عليهم، أن يكون مشتاهم بالصحراء. وأن يكفوا اليد العادية ثم بعث الى نائبه بالجزائر في إرسال عسكر وأربعمائة فارس، ولما وصلوا وزعهم بالجهات، لما رأى من حال أمر المملكة.

أثناء ذلك، كان سلطان تونس السابق (الحسن بن محمد) قد وجد طريق النجاة، فهرب متنقلاً من بلد الى آخر حتى انتهى به المطاف الى اسبانيا، وقابل الامبراطور شارلكان، واستثاره لحرب قومه، ولم تكن هناك حاجة لمثل هذه الاستثارة، إذ كان (شارلكان) قد أعد عدته لقيادة حملة قوية ضد المغرب الإسلامي، غير أنه وجد في شخص (الحسن بن محمد) أداة جيدة يمكن استخدامها لتنفيذ مخططه.

قاد (شارلكان) قواته، وأبحر من مدينة برشلونة يوم ٣١ أيار -مايو- سنة ١٥٣٥م. وقد تولى قيادة حملة صليبية حقيقية تضم (٣٠) ألفاً من المقاتلين الأشداء حملتهم (٥٠٠) سفينة شراعية. ووصل هذا الاسطول الى مواجهة (قرطاجنة) وسواحل مدينة (تونس) في يوم ١٦ حزيران (يونيو).

ولم تكن القوة التي يقودها (خير الدين) كافية لايقاف هذه الحملة الضخمة، إذ لم يكن الجيش الإسلامي يضم أكثر من سبعة آلاف من الأتراك وخمسة آلاف من التونسيين، وتخلف الأعراب عن الجهاد، فكانت النتيجة الحتمية هي استيلاء (شارلكان) على معقل (حلق الوادي) وهو مرسى مدينة تونس. واستعد لمهاجمة العاصمة الحفصية، يتقدم صفوفه بصفة رمزية (الحسن بن محمد) الذي كان قد أبرم مع صاحبه (شارلكان) معاهدة رهيبة خان فيها قومه ودينه.

وتقدم الجيش الاسباني نحو مدينة تونس. وفي نفس تلك الساعة، وقع بتونس الحدث الذي عجل بالانهيار، والذي كان السبب المباشر للكارثة العظمى، ذلك هو انتفاض عشرة آلاف أسير نصراني كانوا محبوسين في العاصمة الحفصية. فعندما خلت المدينة من الجيش الذي تقدم لقتال العدو، وجد هؤلاء الأسرى فرصتهم السانحة، فخرجوا من معتقلهم، ونظموا صفوفهم. ثم هاجموا معقل القصبة الذي لم يكن به من الحرس إلا القليل. فتمكنوا منه، ووجهوا مدافعه في اتجاه جيش المسلمين، الذي وقع بين نارين، وأوصدوا أبواب المدينة وأقاموا عليه الحراسة، ليمنعوا خير الدين وجيشه من الرجوع اليها والتحصن لمقاومة شارلكان ريثما تصل قوات الدعم. وشعر (خير الدين) بالخطر من قبل أن يغادر مدينة تونس، وكان قد اتخذ قراره بابادة هؤلاء الأسرى غير أن سرعة تقدم (شارلكان) أعاقته عن تنفيذ ما قرره. وهكذا خرج خير الدين للقاء الحملة الصليبية فاستولى على (برج العيون) ثم رجع بمن معه الى المدينة، فاضطرب عليه أهلها، بعضهم تمسك بطاعته، وبعضهم انحرف عنه وانضم الى السلطان أبي حفص، فجمع أعيان الناس، وتحدث إليهم، فاختلفوا عليه، فتركهم وخرج بمن معه الى الحرب. وأبلى خير الدين

في ذلك اليوم البلاء الحسن. غير أنه لم يتمكن من الصمود طويلاً، واضطر الى الانسحاب الى (القصبة). ودخل السلطان الحفصي -الحسن- الى تونس في مقدمة الجيش الصليبي. ولقيهم الأعراب بالمقاومة، فقاتلهم قائد الجيش الصليبي -الصبنيول- ودخل السلطان القصبة، ووعد أهلها بالأمان، وهو لا يملك حق إعطاء الأمان بعد أن تعهد للصبنيول بالموافقة على شرطه وهو استباحة البلاد لمدة ثلاثة أيام. وما إن أمن الناس، وخرجوا من معاقلهم، وتخلوا عن أسلحتهم وانصرفوا الى أعمالهم ومتاجرهم، حتى باغتتهم القوات الاسبانية، وأعملت فيهم قتلاً وبمتاجرهم نهباً وببيوتهم سبياً. وفر الى (زغوان) من استطاع أن يجد الفرصة للفرار بنفسه وبأهله.

وانتهت هذه المذبحة الرهيبة بابادة ثلث أهل تونس ونجاة الثلث ووقوع الثلث في قبضة الأسر والمأسور يفتدي نفسه ان كان له مال. وبلغت الفدية ألف دينار، وتغيرت البلاد وطمست أعلامها **وكانت هذه النكبة التي تعرضت لها تونس في سنة ٩٤١هـ (١٥٣٥م) هي أقسى ما عرفته في حياتها من نكبات وكوارث، إذ أن عدد القتلى من سكان تونس خلال الأيام الرهيبة الثلاثة قد بلغ سبعين ألفاً. ونهبت خلال ذلك ثروات المدينة وكنوزها ونفائسها وأموالها وما تراكم فيها عبر مئات السنين بفضل ما عرف عن أهلها من الجهد والنشاط. وأضيفت الى قائمة الكوارث التي تعرضت لها المدن الاسلامية (مثل بغداد على أيدي التتار والقدس على أيدي الفرنج الصليبيين) كارثة جديدة عرفت (بكارثة تونس).**

لقد استمرت معركة تونس ٣٦ يوماً، مما يؤكد قسوة الصراع وعنفه، فقد نزل الاسبان فوق أرض تونس يوم ١٦ حزيران -يونيو-

واحتلوا حلق الوادي يوم ١٤ تموز -يوليو- أي بعد شهر تقريباً. واحتلوا تونس ونكبوها يوم ٢١ تموز -يوليو-. وقد حاول (شارلكان) التخفيف من وقع المذبحة، والقاء تبعاتها على أهل تونس، فكتب الى عميله حاكم مدينة (بجاية) رسالة يوم ٢٣ تموز (يوليو) ١٥٣٥ يقول فيها:

«ولكن، وبما أن سكان مدينة تونس لم يقابلوا ملكهم قبولاً حسناً، كما يستحق، وكما هو واجبهم، فقد رأينا ان نأمر بنهب المدينة، انتقاماً منهم على سوء سلوكهم».

استقر السلطان (الحسن بن محمد) على عرش تونس، فوق أشلاء أمته الممزقه وعلى جثث الضحايا من رجال قومه ونسائهم وأطفالهم. وعقد مع الاسبانيين معاهدة نصت على ما يلي:

١- اعتراف الدولة الحفصية بتبعيتها للدولة الاسبانية.

٢- ملكية الاسبانيين ملكية مطلقة لمرسى (حلق الوادي) و(قرطاجنة) و(مدينة عنابة) و(مدينة المهدية).

٣- التزام السلطان بألا يدخل بلاده أحداً من مهاجري الأندلس، يهودياً كان أو مسلماً.

وانسحب (شارلكان) باسطوله ومعظم جيشه الى قاعدته في صقلية. وعاد (خير الدين) الى قاعدته الأساسية (في الجزائر) بعد أن عانى وقواته من الجوع والظمأ والحر. واستقر حيناً بمدينة (قسنطينة). واستقبل أهل الجزائر رجوعه بالبهجة. وانصرف (خير الدين) لإعادة تنظيم قواته من أجل استئناف الجهاد ضد الاسبانيين، لا سيما وقد ظهر بوضوح أن (شارلكان) قد صمم على تدمير دولة الجزائر مهما بلغ الثمن وقد تبين ان مخطط (شارلكان) يعتمد على انتقاص حدود

الجزائر بصورة تدريجية قبل الانقضاض على قلبها (عاصمتها). ومن أجل ذلك، فقد قام بالاستيلاء على (مرسى هنين) ومدينتها.

كانت مدينة (هنين) هي المرسى الطبيعي لعاصمة تلمسان، نظراً لقرب المسافة بينهما، إذ تقع داخل جون حسن، في منتصف الطريق بين (بني صاف) و(جامع الغزوات) وبينها وبين تلمسان -على خط مستقيم- مسافة (٤٥) كيلو متراً. وكان ملك (تلمسان) قد أرسل مدداً لمرسى هنين عندما قام الاسبانيون باحتلال مدينة (وهران) في سنة ١٥٠٩. وقام بتحصينها وتنظيم الدفاع عنها نظراً لما لها من أهمية اقتصادية باعتبارها مركز المبادلات التجارية مع أوروبا بصورة عامة ومع بلاد البندقية بصورة خاصة.

ووجه الامبراطور (شارلكان) أمراً الى قائده (دون الفارو دوبازان) في شهر آب (أغسطس) سنة ١٥٣١، باحتلال مدينة (هنين) ومهاجمتها بقوة. ولم يتأخر (دوبازان) عن تنفيذ الأمر، فركب وجيشه البحر على متن ١١ سفينة حربية بالاضافة الى سفينتين ناقلتين للجنود، وأخذ معه أعتدة ومواداً تموينية تكفيه لمدة شهرين. وخرج- من مالقة في شهر آب (أغسطس). ثم حل بمدينة وهران حيث انضمت لقوته مجموعة من المقاتلين تتكون من (٢٥٠) جندياً، وغادرها يوم (عيد سان برتلمي- في ٢٤ آب- أغسطس) ووصل الى مدينة هنين يوم ٨ أيلول - سبتمبر- سنة ١٥٣١. ودخل الاسطول الاسباني المرسى واحتل المدينة والقصبة.

لم تكن المدينة تتوقع هذا الهجوم المباغت، ولم تكن قوة الحامية متمركزة في مواقعها عندما وقع العدوان وعلى الرغم من ذلك فقد قاوم المواطنون عملية الغزو وقتلوا (٤٠) اسبانياً، بالإضافة الى مائة

جريح. وكتب راهب ـ أسقف ـ طليطلة الى الإمبراطور ـ مبشراً بالفتح، وكان في رسالته ما يلي:

«أكد لنا الذين يعرفون البلاد، أن لمدينة هنين ومرساها أهمية بالغة، فهنين بلدة محصنة ذات أسوار منيعة، ولها قلعة عظيمة، ولا تبعد عن تلمسان أكثر من (١٢) مرحلة، وهذا أمر له أهميته العظمى بالنسبة للحركة التجارية التي يمكن أن نتداولها مع العرب، كما أن امتلاكنا لمدينة هنين يساعدنا بصورة خاصة على ابقاء ملك تلمسان تحت قبضة أيدينا، فهو لن يفكر في مهاجمتنا عندما يرانا قد تمكنا من البلاد داخل حدودنا الجديدة وتحصنا بها».

أما الدكتور لبريخا ممثل الامبراطور بوهران فقد كتب لسيده يوم ٢ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٥٣١ ما يلي: «أعتقد أن احتلالنا لمرسى هنين انما هو حدث عظيم جداً، ذلك أننا باستقرارنا وبتمكننا من هذه البلدة، نستطيع ان نعاقب ملك تلمسان، ونجبره على القيام بتعهداته، ذلك أن الطريق من هنين الى تلمسان، أقرب وأضمن من طريق وهران والمرسى الكبير، ونستطيع من هذه البلدة، دون كبير عناء، أن ندخل مدينة تلمسان، وأن نأخذ من مولاي عبد الله أحسن ممتلكاته[١]».

---

(١) تجدر الاشارة الى تلك المقاومة البطولية التي نظمها الشعب المجاهد في (هنين) حيث حرم الاسبانيين من متعة انتصارهم، واحكم الحصار حولهم، ولم يترك لهم الفرصة للتوغل الى داخل البلاد، وحرمهم من الحصول على متطلباتهم من المواد التموينية. وشن عليهم الغارات باستمرار، وارغمهم بعد ثلاث سنوات من الصراع المرير على الجلاء عن (هنين) حيث انسحبت القوات الاسبانية في كانون الثاني ـ ديسمبر ـ ١٥٣٤. وقد كان انتقام الاسبانيين رهيباً، إذ أمعنوا في تخريب المدينة وتدميرها حتى جعلوا عاليها سافلها، وقوضوا معالمها، وافسدوا مساجدها، وضربوا مرساها، ومحوا آثارها من الوجود، بعد ان كانت طوال خمسمائة عام مناراً من منارات الاسلام الشهيرة.

أراد (شارلكان) استثمار الظفر الذي أحرزه في تونس، وتنفيذ شروط معاهدته مع عميله (الملك الحسن بن محمد) والإفادة من حالة العطالة التي تعرض لها خير الدين بعد معركة تونس، فأصدر أمره الى قائد حملته (المركيز دي موندبخار) بالاستيلاء على مدينة (عنابة) بونة، والتي كانت تابعة بصورة اسمية للسلطان الحفصي في تونس. وهكذا تحرك الاسطول الاسباني في شهر آب -أغسطس- نحو عنابة.

ووصلها، وقام باحتلالها، وأرسل قائد الحملة الى الامبراطور تقريره عن نجاحه في تنفيذ مهمته وذلك في يوم ٢٩ آب -أغسطس- **١٥٣٥**. وتضمن التقرير ما يلي:

«كان البحر هادئاً، انما كانت الرياح معارضة، فلم يصل الاسطول الا بعد خمسة أيام الى عنابة، وكان - دون الفارو دي بازان- قد سبقنا اليها مع الناقلات، وما كاد يصل حتى تلقى بعض ضربات المدفعية مما يدل على أن السكان قد صمموا على الدفاع. وأنزلنا الجند، ثم شكلنا كتيبتين وأرسلناهما لمهاجمة القصر. ولم يكن العرب ينتظرون هجومنا عليه، فبادروا بالتخلي عنه. ولم نفعل ذلك اليوم شيئاً آخر. فاكتفينا باحتلال القصبة والمدينة. أما الناقلات التي منعتها مدافع العدو من الاقتراب، فانها قد دخلت المرسى، وانصرفنا خلال الأيام الثلاثة التالية الى انزال المدفعية والذخائر والمؤن الى البر، وبعد دراسة وضع المدينة والقلعة، تأكدنا أنه يجب احتلالها معاً وفي وقت واحد. لأن الجند الذي يحتل القلعة لا يتمكن بسهولة من نجدة العرب الذين يحتلون المدينة ويدافعون عنها، ويجب علينا أن لا نترك العرب يدخلون المدينة إلا بعد التصريح لهم بذلك. فإذا دخلوها فيجب الا يجدوها خالية من قواتنا لأنهم في هذه الحالة قد يفكرون

بالعودة اليها، أو أن يدخلها عربٌ آخرون مكانهم ويتصرفون فيها بصفة تجعلها غير صالحة للسكنى - ولقد تركت (٢٠٠) جندي بالقصر، و(٦٠٠) جندي بالمدينة، وإذا ما رأينا السماح للعرب بسكنى المدينة من جديد، فعلينا أن نقيم حصناً فوق المرتفع الذي يعلو المرسى، حتى نستطيع نجدة جند القصر».

لم يكن باستطاعة (خير الدين) وهو يتابع شراسة الهجمة الصليبية، الوقوف في حالة من العطالة أو الجمود، فقرر توجيه ضربة للاسبانيين في قواعدهم، ووقع اختياره على مدينة (ماهون) عاصمة جزائر الباليئار، والمدينة الأولى في جزيرة (مينورقة).

قاد (خير الدين) اسطوله بكفاءة، حتى إذا ما وصل الى (ماهون) قام باحتلالها، غير أنه تجنب سفك الدماء، ولم يفعل ما فعله الاسبانيون في تونس. واكتفى باستحواذ كل ما ضمته المدينة من الثروات. وعاد بها الى الجزائر، حيث تم توزيعها على المجاهدين بعد تخصيص الخمس (لبيت مال المسلمين) أما الأسرى الذين اقتادهم (خير الدين) من جزيرة (مينورقة) وعددهم ستة آلاف نسمة فقد احتفظ بهم في الجزائر.

كان من أثر هذه الإغارة الانتقامية أن تناقصت أهمية انتصارات الاسبانيين في المغرب الاسلامي وأخذت الشكوك في التعاظم حول أهمية ما تبذله القوات الصليبية طالما أن التهديد الذي تمثله الجزائر لا زال قائمًا، وطالما أن الخطر الذي يمثله (خير الدين) لا زال مستمراً. وترددت أصداء انتصار (خير الدين) - كالعادة - وبصورة متضادة في العاصمتين المتصارعتين (استانبول - و - مدريد) حيث كان الصراع قد وصل ذروته على كافة الجبهات، الأمر الذي دفع السلطان سليمان القانوني الى استدعاء (خير الدين) الى القسطنطينية لتولي قيادة

الاسطول العثماني. وعندها كلف (خير الدين) نائبه (محمد حسن آغا) بإدارة أمور المملكة الجزائرية وتوجه الى عاصمة الامبراطورية العثمانية فوصلها في شهر كانون الأول - ديسمبر- ١٥٣٥م.

أصبح باستطاعة (خير الدين) وهو في مركزه الجديد، أكثر قدرة وأشد عزيمة لمتابعة الجهاد ضد الاسبانيين وأنصارهم، وقد عمل على إقناع السلطان سليمان بضرورة شن الحرب على البنادقة، وتم له ذلك في سنة ١٥٣٧، وعندها انصرف (خير الدين) إلى إدارة الحرب بكفاءة عاليه بحيث لم تمض أكثر من ثلاث سنوات حتى استطاع تجريد البنادقة من كل ممتلكاتهم في بحر إيجه حتى سواحل كريت (أقريطش) وتينوس وميقونوس. ولكن اهتمامه الأكبر بقي مركزاً على (الجزائر) التي أحبته وأحبها، وأخلص لها بقدر ما أخلصت له. ومن أجل ذلك أيد بحماسة بالغة مبدأ التحالف مع ملك فرنسا (فرنسيس الأول) ضد امبراطور الغرب (شارلكان). غير أن تصعيد الصراع على حدود أوروبا البرية وفي شرق البحر الأبيض المتوسط قوبل بتحولات خطيرة على مسرح المغرب العربي الإسلامي واعتمد (شارلكان) هنا على (أعداء الداخل) أكثر من اعتماده على (القدرة العسكرية) للوصول إلى أهداف (الحرب الصليبية الشاملة).

ج- اعداء الداخل في غياب (خير الدين)

عرف الافرنج الصليبيون عامة والاسبانيون الكاثوليكيون منهم بصورة خاصة، أن ضعف المسلمين عامة إنما يكمن داخلهم أكثر مما يكمن في قدراتهم وإمكاناتهم. وقد أثبتت تجارب الصراع في الحروب طويلة الأمد على جبهتي الشرق والغرب، في الشام والأندلس، أن الانتصارات التي أحرزها الصليبيون لم تكن إلا بسبب تمزق العرب

المسلمين وتشتتهم. ولهذا فقد اعتمد قادة الافرنج باستمرار على الخداع والتفرقة أكثر من إعتمادهم على قوة السلاح، وإذا ما تم استخدام قوة السلاح، فهو من أجل دعم السلاح الأول وزيادة فاعليته. وهكذا جاء (شارلكان) ليسير على سياسة أسلافه وليعمل على تطويرها، فبث جواسيسه وعملاءه في كل مكان، وأخذ في استثمار التناقضات المتوافرة من أجل اقتطاف ثمارها. وقد يكون من الصعب استعراض الأساليب المختلفة والطرائق المتنوعة التي تم استخدامها في هذا المضمار، ولعل الإشارة الى بعضها كافية لابراز الملامح العامة لما كان عليه الموقف في تلك الحقبة التاريخية من الصراع على جبهة المغرب العربي الإسلامي.

كان محمد السابع (١٥٢٤) بن عبد الله الثاني حاكم تلمسان قد وصل الى الحكم بدعم الحراب الاسبانية، وثار عليه أخوه عبد الله الذي ناصره جده لأمه عبد الرحمن بن رضوان أحد شيوخ قبيلة بني عامر. ووقف الاسبان خلف الأخوين، يحرضانها، ويستثيرانهما.

وها هو تقرير كتبه الحاكم العام لوهران (بيدرو دي لودي) ورفعه للأسقف بتاريخ ٢٠ آب -أغسطس- ١٥٣١ وفيه ما يلي:

١ـ «يخوض الملك عبد الله حرباً ضد أخيه عبد الله، وقد أرسل مولاي عبد الله جيشه لقتال أخيه محمد، ووقعت معركة يقال أن النصر فيها كان لجماعة عبد الله، لكن قائد بني راشد جاء على رأس خمسمائة من الرجال، فاضطر أخو الملك إلى الانسحاب، وجميع عرب المملكة قائمون اليوم: بعضهم مع الملك وبعضهم مع الأمير عبد الله. وأنا أظن أن كل العرب في هذه الناحية الشرقية من المملكة سينضمون الى الأمير عبد الله إذا ما حل بهذه الساحة. ونرجو أن يقع الأمر على هذا

المنوال، لأن أخا الملك أصبح حليفنا، وبذلك سنمسك بجميع خيوط اللعب ويستطيع صاحب الجلالة ـ امبراطور اسبانيا ـ أن يفيد من الموقف حسب إرادته ـ وأنا أعتقد أن ذلك ممكناً، إذا ما أخذنا بهذه الطريقة: جلالة الامبراطور يؤيد عبد الله ويعترف به ملكاً، ويسلم إليه قسماً مهماً من الأراضي التي سننتزعها من قبضة الأتراك. لكننا مع ذلك لا نقوض سلطان ملك تلمسان، ونترك له ما بيده من الأرض.

وبهذه الطريقة سيعلن الاثنان سرورهما ورضاهما، وسيكونان معاً عوناً لنا على محاربة -خير الدين بربروس- ان ملك تلمسان، (مولاي محمد) قد دعا إليه أحد اليهود من هنا ـ وهران ـ ولا ريب أنه سيتخذه واسطة للدخول في مفاوضات معنا. أما العرب الذين أرسلهم لنا الأمير محمد، فقد اعتبروا دعوة هذا اليهودي لتلمسان فضيحة، وبذلت جهدي لتهدئة خواطرهم. وهذا ما يحدث غالباً لمن يتعامل مع الطرفين المتصارعين في وقت واحد».

٢ ـ وجاء في رسالة الدكتور (لبريخا كوريجيدور) من وهران إلى الامبراطور بتاريخ ٢ أيلول (سبتمبر) ١٥٣١ ما يلي:

«أبذل قصارى جهدي لاقناع عرب المملكة ـ تلمسان ـ بأن ينضموا إلينا، وأعتقد أن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي تمكننا من معاقبة ملك تلمسان على عدم وفائه بعهوده، وعلى عدم سماحه للعرب بأن يبيعونا المؤن كما كانوا يفعلون من قبل. ولقد دخلت في مفاوضات مع الأمير عبد الله، مع حرصي على أن يعرف الملك ـ مولاي محمد ـ ذلك بصفة رسمية، حتى يعلم مدى الخسارة التي تلحق به من جراء امتناعه عن خدمة جلالتكم. وقد طلب الي الملك أن أرسل له شخصاً للتفاوض معه منذ خمسة عشر يوماً، فبعثت إليه باثنين

من اليهود الحذرين الأذكياء، وهما أفضل من وجدت هنا . وسارت الأمور سيراً حسناً في بداية الأمر، لكن الأحوال ساءت عندما حل بتلمسان مندوب من قبل التركي العظيم (سليمان القانوني) إذ أظهر مولاي محمد عندها الاعتزاز بالرسول التركي ، مما جعله لا يقف عند حدود عدم استقبال المندوبين اليهوديين، بل إنه أسلمهما للقتل . وفي هذه الأثناء، أعلمني الأمير عبد الله بأنه سيحل قريباً بوهران ، بصحبة نسائه وأولاده والشيوخ المنضمين تحت لوائه ، وأعلمني كذلك أنه سيسلم إلي الرهائن التي طلبناها منه . وأشعر في الواقع بالحيرة ، لانني كنت اخبرت الأمير بأنه إذا ما وضع عائلته عندنا في مدينة وهران ، وحذا الشيوخ المنضمون اليه حذوه ، فإن جلالتكم سوف تسلمون له العون من مال ورجال حتى يحتل مدينة تلمسان ، على شرط أن يكون أكثر وفاء من أخيه في تنفيذ شروط الاتفاقية التي ستعقد معه» .

٣ـ وكتب حاكم (هنين) رسالة للامبراطور (شارلكان) في يوم ٢٦ نيسان ـ أبريل ـ ١٥٣٤ يصف بها حالة (الموقف) في تلمسان ؛ وجاء في الرسالة ما يلي :

«كتبت منذ أيام لجلالتكم أعلمكم أنني اتصلت من جواسيسنا بأخبار عن مولاي محمد ملك تلمسان ، انه قد استعرض يوم ٢٠ من هذا الشهر جيشاً أعده لقتالنا ، وهذا الجيش مستعد للسفر حيثما يريد . وأخبرني أحد هؤلاء الجواسيس أن الملك قد اتصل برسول من الجزائر يحمل إليه رسالة تخبره بموت ـخير الدين ـ بربروس . فحزن الملك حزناً شديداً ، وألقى بنفسه فوق الأرض نائحاً منتحباً ، ثم نهض وقال للشيوخ الذين كانوا حوله ، بما أن والدي بربروس قد مات ، فلم يبق لنا من عمل نعمله ، وطلب اليهم أن يعودوا إلى بلادهم ريثما

يحصل من الأتراك على العون والتأييد من جديد. فلما سمع الشيوخ حديثه، خرجوا من عنده وكلهم يقول فيه سوءاً. ويقول بعض الجواسيس الآخرين أنه جاءت بعد ذلك رسالة من الجزائر تؤكد أن بربروس لم يمت، إنما هو في مكان مجهول. ويقول البعض أن الملك مولاي محمد لا يريد أن يحارب النصارى، لأنه رجل ليس له إرادة على القتال وانه منصرف الى ملذاته، وغارق فيها، وأنه لا يفكر إلا في ابتزاز المال من أية جهة كانت. ويقولون إنه جاء من مدينة الجزائر بزوجتين دخل بهما في هذه المدينة، وجاء كذلك بزوجتين أخذهما بمدينة (فاس) عندما كان محارباً لأبيه. وبعدما تولى المُلك بتلمسان، تزوج ست عشرة مرة، ولا يفعل شيئاً إلا إقامة الحفلات والأفراح، ويلح في طلب المال من أهل المدينة ومن العرب واليهود».

٤ ـ وعندما اندلعت الحرب بين الأخوين ملك تلمسان (محمد) وأخيه (عبد الله) الذي كان الاسبانيون يناصرونه ويناصرون جده (ابن رضوان) انتصر ملك تلمسان، وكتب حاكم وهران (الكونت دي الكوديت) تقريراً بتاريخ ١٢ تموز ـ يوليو ـ ١٥٣٥ رفعه للامبراطور شارلكان، وجاء فيه:

«إن ـ ابن رضوان ـ لا يفكر إلا في أمر واحد الا وهو الانتقام وأخذ الثأر من مولاي محمد. ولقد طلب مني الإذن بالقدوم الى وهران، وكذلك طلب بقية الشيوخ الذين بقوا على ولائهم له. وقد منحتهم الإذن. وبما أنه من المهم جداً بالنسبة إلينا أن يبقى العرب دوماً مختلفين، فقد حرضت ابن رضوان والشيوخ الذين معه على مواصلة القتال... وعلى كل فانني مواصل الجهود لكي يتفاقم أمر الخلاف بين الطرفين».

لقد نجحت هذه السياسة في تحقيق أهدافها، وكان من بعض نتائجها تثبيت أقدام الاستعماريين الاسبانيين فوق بعض مواقع المغرب العربي- الاسلامي. وكان من بعض نتائجها اخضاع الحكام وإشاعة روح التخاذل وهي الروح التي وجدت تعبيراً لها في التحالفات التي أقامها الحكام الاسبان مع بعض الحكام (مثل المعاهدة الاسبانية مع ملك تلمسان)[1].

لقد كانت عملية (التفتيت المادي والمعنوي) لقوى العرب المسلمين هي المرحلة التمهيدية لتطوير الأعمال العدوانية، والتي سبقتها عملية جمع معلومات دقيقة عن موازين القوى وتوزيعها وامكاناتها (أعمال الجاسوسية) وقد يكون من الصعب استقراء كافة البيانات والتقارير المتوافرة في هذا المجال غير انه ليس من الصعب أبداً معرفة الصورة الإجمالية للجهد المبذول خلال مرحلة الإعداد للمرحلة التالية من الحرب، عبر التقريرين التاليين.

٥- تقرير سري اسباني عن قوة الجزائر- سنة ١٥٣٣:

«يحكم الجزائر الآن (حسن آغا) وينوب عنه في حالة غيابه (حاج باشا) و(القائد الصوردو). ويوجد بمدينة الجزائر (١٨٠٠) تركي. أما ببقية البلاد فيوجد من الأتراك: في تنس ٢٥، في برسك ١٠، في شرشال ٣٠، في المدية ١٥٠، في مليانه ١٠٠، في تادلس ٦٠، في بنوره- أوزنوره- ٢٠، في جيجل ٢٠، في القل ٢٠، في قسنطينة ٣٠٠، فيكون المجموع ٧٣٥. وهكذا يوجد (٢٦٠٠) تركي تقريباً، وتوجد بمدينة الجزائر (٣) آلاف عائلة عربية تقريباً و(٣٠٠)

---

(١) انظر نص هذه المعاهدة في (قراءات- ٤) في نهاية الكتاب.

عائلة يهودية. أما القوة التي بين يدي حسن آغا، وهو مخيم الآن خارج المدينة فهي تشمل (٧٠٠) تركي وألف فارس وألفي راجل من العرب، ويشمل تسليح الجزائر ما يلي: في البرج الفوقاني ثلاثة مدافع لرمي الحجارة، و(٥) مدافع صغيرة. وفي البرج الكبير بباب الواد مدفعان كبيران ومدفعان صغيران. وفي زاوية باب الواد قرب البحر أربعة مدافع، ومن هذا المكان الى الباب المقابل للجزيرة (١٧) مدفعاً، ومن هذا الباب الى المسجد الكبير (١٧) مدفعاً من البرونز و(٤) مدافع من الحديد. وبين المسجد الكبير ودار الصناعة (٢١) مدفعاً من بينها (٦) مدافع صغيرة من الحديد. وبين دار الصناعة وباب عزون (٨) مدافع، وفوق الباب ذاته مدفعين صغيرين (يرميان قنابل من الرصاص تزن الواحدة منها كيلو غرام تقريباً). وفي المرسى (٨) سفن يحتوي أكبرها على (١٧) صفاً للجذافين. ويشتغلون الآن في المدينة بصنع الخبز المجفف (كعك أو بسكويت) بكل نشاط. وكذلك في المدية والمليانة، الأمر الذي لم نشاهده من قبل أبداً. ويسود الانزعاج في المدينة لأنهم سمعوا أن الإمبراطور سيعقد الصلح مع ملك فرنسا. لكن خواطرهم هدأت عندما علموا أن السلطان يجهز الآن عمارة قوية ـ أسطولاً».

٦ـ وهذا تقرير سري اسباني آخر عن حالة الجزائر:

الى صاحبة الجلالة الملكة

من فرانسيسكو بيريز دي ايديا كاييز ـ حاكم بجاية.

بجاية ٢٩ آذار ـ مارس ـ ١٥٣٦

«وردت الينا معلومات من مدينة الجزائر، نقلها لنا ستة من

العبيد المسيحيين الذين تمكنوا من الفرار يوم ٢٧ شباط (فبراير) وغادروا الجزائر بسفينة صغيرة أوصلتهم الى مدينة بجاية.

يوجد الآن في مدينة الجزائر ألفان من الأتراك وسبعة أو ثمانية آلاف من مهاجري الأندلس في مدن الجزائر ومليانة وبقاع أخرى وزعها بربروس على الحاميات. أما حاكم الجزائر اليوم فهو من سردينيا، اسمه حسن آغا، وسكان المدينة في قلق شديد، لأنهم اتصلوا بأنباء موثوق بها تفيد تحرك أسطول جلالتكم. وأخبرنا الأسرى المذكورون أن الأمطار الغزيرة التي انهمرت في فصل الشتاء قد هدمت سور المدينة في ثلاث جهات، وعلى مسافات شاسعة، وقد أقدم السكان على ترميم ما تحطم بكل سرعة، لكن العمل لم يتم الى الآن نظراً لعدم وجود البنائين العارفين. ويقولون هنا أنهم سيستعينون بألف وخمسمائة من العرب المحيطين بالجزائر من أجل انجاز العمل. أما مدينة قسنطينة ففيها ألف وخمسمائة من الإنكشارية يقودهم تركي اسمه (القائد كلج علي) وبربروس هو الذي أرسل هؤلاء الإنكشارية وبما ان كلج علي هذا تابع لحكومة الجزائر، فلا ريب أنه سيقدم الى مدينة الجزائر بمجرد علمه بتحرك أسطول جلالتكم».

د ـ شارلكان وغزو الجزائر

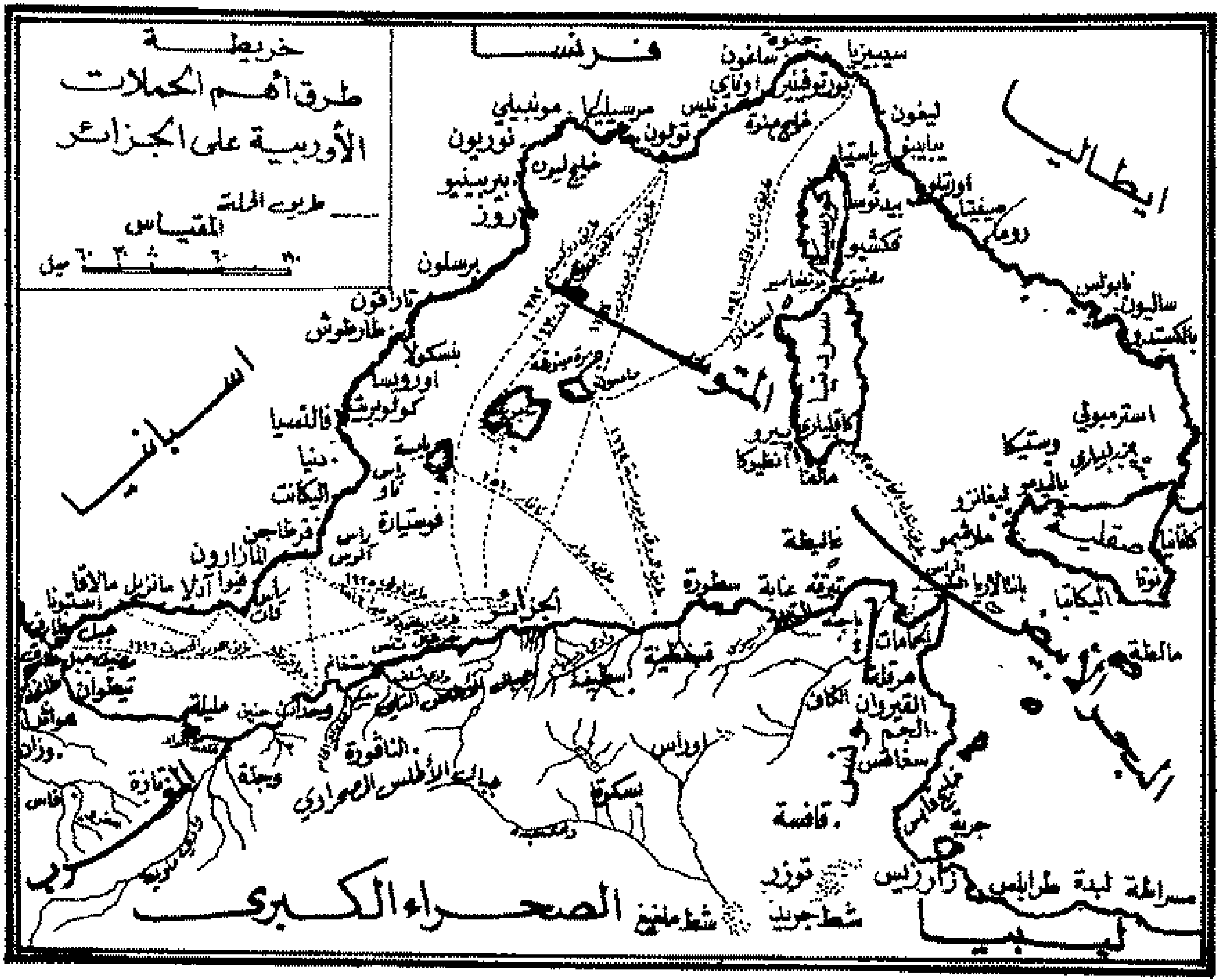
كان (شارلكان) يعمل جاهداً على خلق كتلة أوروبية قوية تجابه العالم الإسلامي. وعندما توفي الامبراطور النمساوي (مكسيميليان) طمع (شارلكان) في ضم هذا العرش. وكان ملك فرنسا (فرنسوا الأول) يطمع في السيطرة على هذا العرش أيضاً والذي ينضوي تحت لوائه سبعة ملوك وأمراء. ومن هنا، واعتباراً من سنة ١٥١٩، بدأ الصراع بين الملكين. واجتمع الأمراء الناخبون (الالكتر) في مدينة

فرانكفورت، وبعد المساومات المعهودة تم الاتفاق يوم ٥ تموز (يوليو) ١٥١٩ على انتخاب ملك اسبانيا امبراطوراً للغرب وأصبح يحكم معظم إيطاليا وبلجيكا وهولاندا والنمسا وبعض الشمال الافرنسي بالإضافة الى الممتلكات الاسبانية في الأرض الجديدة (امريكا الجنوبية) ووجدت فرنسا نفسها محاطة بالأعداء وهي تكاد تفقد استقلالها، سيما بعد خيانة مارشال فرنسا (الامير دي بوربون) أثناء الحرب، واتفاق الأمراء على اقتسام ترابها. وبعد معارك طويلة قاسية، وقع ملك فرنسا أسيراً في إيطاليا يوم ٢٤ شباط (فبراير) ١٥٢٥ وحمل الى مدريد، حيث ارغم على توقيع معاهدة سلم فيها لأعدائه ما طلبوه منه، وكتب إلى أمه يقول:

«سيدتي، لقد خسرت كل شيء، ما عدا الشرف والحياة». ثم أطلق الاسبانيون سراحه بعد أن ترك ولديه رهينة عندهم. وأرسلت أمه ـ أو أرسل هو عن طريق أمه ـ رسالة يستغيث فيها بالسلطان سليمان القانوني لنجدته والتحالف معه. وأجابه سليمان الى ما طلبه[1] وما كاد يذاع نبأ هذا الحلف بين سلطان المسلمين وملك فرنسا المسيحي، حتى اجتاحت أوروبا موجة من النقمة، وارتفع صوت التنديد بملك فرنسا الذي يستنجد ـ بالكفار ـ اعداء المسيحية ضد ملك مسيحي. وأسهم (شارلكان) بهذه الحملة من أجل تضييق الخناق على فرنسا، وأعلن الغاءه للمعاهدة السابقة التي عقدها مع ملك فرنسا وكان التحالف الذي تم الاتفاق عليه بين الملك الفرنسي ومندوبي السلطان العثماني ينص على القيام بهجوم مشترك ضد إيطاليا. وفي أيار ـ مايو ـ سنة ١٥٣٨ جمع السلطان سليمان في البانيا جيشاً كبيراً من

---

(١) انظر نص رسالة السلطان سليمان في (قراءات ـ ٥) في آخر الكتاب.



خريطة
طرق أهم الحملات
الأوربية على الجزائر
طريق الحملة
المقياس
ميل
فرنسا
إسبانيا
إيطاليا
ليبيا
الصحراء الكبرى
البحر الأبيض المتوسط
الجزائر
قسنطينة
عنابة
تونس
القيروان
صفاقس
قفصة
مرسيليا
طولون
برسلون
بلنسية
قرطاجنة
وهران
تلمسان
سكيكدة
بجاية
سطيف
بسكرة
جبال الأطلس الصحراوي
صقلية
سردينيا
كورسيكا
مالطة
طرابلس

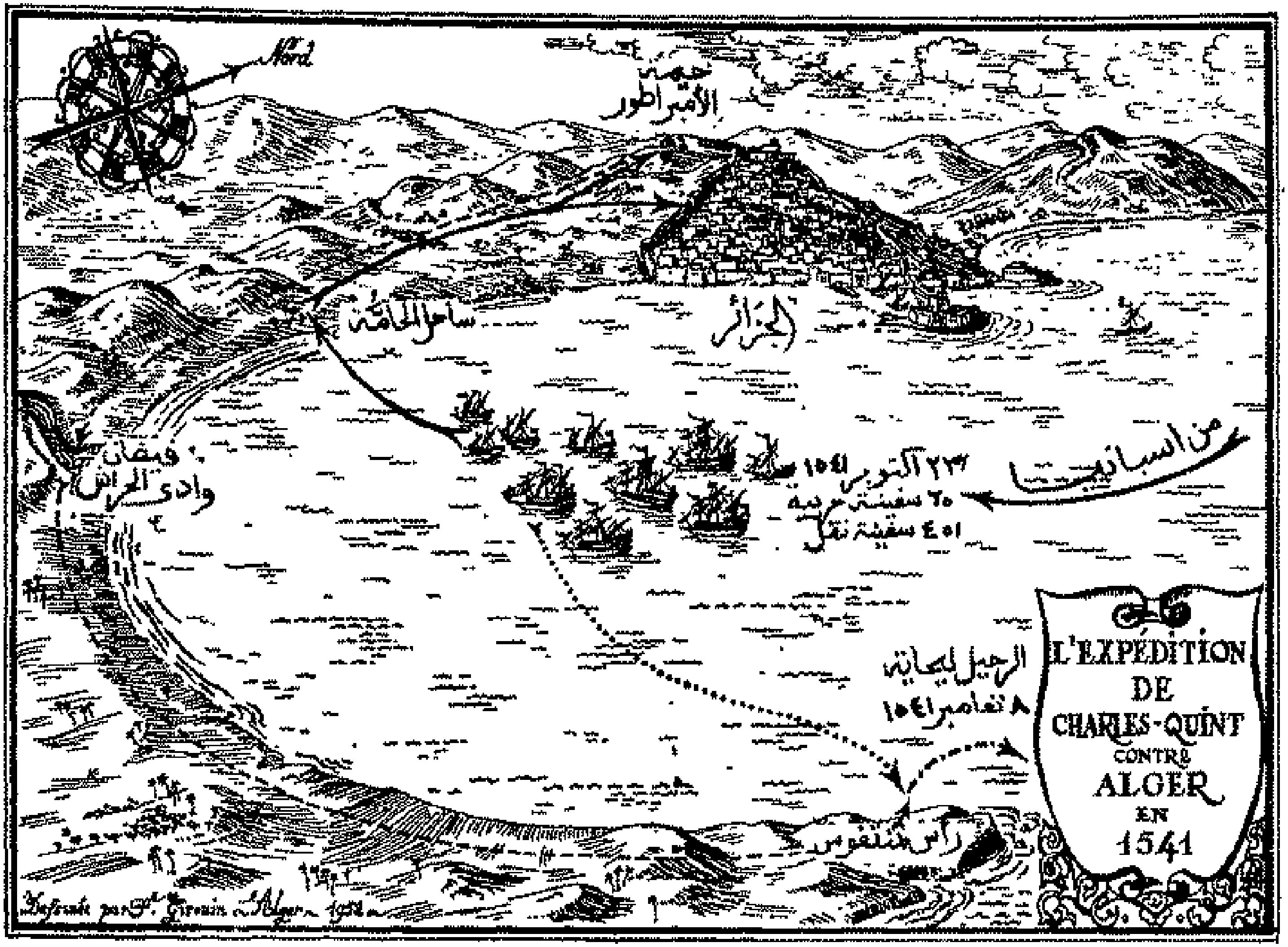
مائة الف مقاتل للهجوم على إيطاليا.

وكان معه ولداه (محمد وسليم) وسفير فرنسا في استامبول (مسيو دولانوي) وفي الوقت ذاته قام (خير الدين باشا) بإنزال قواته في ميناء أوترنته بجنوب إيطاليا، استعداداً لمهاجمتها من جهة الجنوب، بينما يهاجمها السلطان سليمان من جهة الشرق، وملك فرنسا من جهة الغرب، لكن ملك فرنسا أحجم عن التقدم استجابة للرأي العام المسيحي، وأدى ذلك الى فشل المشروع، وانتهى الأمر بتوقيع هدنة بين ملك فرنسا وبين الامبراطور (شارلكان)، ووقعا على معاهدة الصلح في (نيس) سنة ١٥٣٨ بعد أن مارس البابا (بولس الثالث) نفوذه القوي من أجل المحافظة على الوحدة المسيحية، وصداً للتقدم الاسلامي في بلاد إيطاليا.

فتحت معاهدة (نيس) المجال الواسع أمام (شارلكان) لإعداد حملته الضخمة ضد الجزائر، لا سيما وأن ملك فرنسا تعهد لشارلكان بأنه لن يحاربه ولن يقوم بأي عمل ضده، أثناء محاربته وتحطيمه لسلطان المسلمين في مدينة الجزائر، ففرنسا والبابا وكل البلاد المسيحية كانت مشتركة في الحملة العظمى على مدينة الجزائر.

كان نائب خير الدين في ولاية الجزائر (محمد حسن) يتابع جهوده لإعادة تنظيم البلاد. وتوطيد دعائم الأمن والاستقرار فيها، وحشد القوى والوسائط لتطوير الصراع ومجابهة الاحتمالات المختلفة، غير أن ذلك لم يصرفه عن متابعة الجهاد في سبيل الله في البحر. وقاد مجموعة من العمليات كان من أبرزها إغارته على جبل طارق ومعركته البحرية ضد قوة من الاسطول الاسباني.

ففي عمليته الأولى، جهز قوة من (١٣٠٠) مقاتل حملتهم



تفصيل معركة الجزائر الكبرى وانكسار الاسبان برا وبحرا امامها

(١٣) سفينة حربية غادرت الجزائر في شهر أيلول (سبتمبر) ١٥٣٩ . ووصلت هذه القوة الموانىء الجنوبية الأندلسية، وقامت بالإنزال وأغارت على جبل طارق، فاحتلت البلدة، واستولت على ما فيها من غنائم، وأوغلت في الاقليم وهي تصادر ما يقع تحت أيدي المجاهدين وتختار من الاسبانيين جماعات الأسرى والسبايا لبيعهم في المدن المغربية الجنوبية (تطوان خاصة) ثم تعود للميدان.

وعندما تمت العملية وقفل (محمد حسن) راجعاً الى مدينة الجزائر، اصطدم بقوة بحرية اسبانية ضخمة يتولى قيادتها (الأميرال برنارد دي موندوزا) ووقعت معركة ضارية بين القوتين أسفرت عن غرق عدد من سفن الجانبين. وتمكنت القوات الاسبانية من تحرير سبعمائة من الجذافين النصارى الذين كانوا يعملون أسرى فوق السفن الجزائرية. لكن خسائر الاسبان خلال هذه المعركة كانت كبيرة جداً زاد عدد القتلى فيها على ثمانمائة قتيل.

وأتم شارلكان استعداداته لحملته الحربية البحرية الكبرى ضد الجزائر. وضم جيشه أفضل المقاتلين والنبلاء من اسبانيا وألمانيا وايطاليا، بالإضافة الى المتطوعين، وايضاً الى الجيش الذي أرسله البابا بقيادة حفيده (كولونا). كما أرسلت رهبنة مالطا (١٤٠) فارساً و(٤٠٠) مقاتلاً من المشاة. وأصبح هذا الجيش يضم (٢٤) ألف مقاتل من المشاة - الراجلين و(ألفي) فارس. أما الاسطول فكان يشتمل على (٤٥٠) سفينة نقل ضخمة و(٦٥) سفينة حربية كبرى. وبلغ مجموع عدد أفراد البحارة (١٢) ألف رجل، وتولى (أندريا دوريا) قيادة القوة البحرية في حين تولى (شارلكان) بنفسه قيادة الحملة.

وعندما أصبحت الحملة جاهزة للتحرك أصدر البابا يوحنا الثالث بياناً نشره على البلاد الأوروبية كلها، أعلن فيه أن هذه الحملة هي حملة صليبية، وأن واجب كل مؤمن بالمسيح مخلص للنصرانية، أن ينضم إليها وأن يشارك في محاربة الكافرين.

وحاولت اسبانيا خلال ذلك إضعاف البحرية العثمانية عن طريق محاولة استمالة (خير الدين- بربروس) وذلك بان تم إرسال جواسيس من قبل (شارلكان) الى استامبول للإتصال مع (خير الدين) ومفاوضته على أساس تعيينه (ملكاً) على الشمال الأفريقي كله، واعتراف اسبانيا بملكيته مقابل اعترافه بتبعيته لشارلكان ودفع جزية سنوية محددة. ودخل (خير الدين) في المفاوضات التي استمرت على فترات متناوبة طوال سنتين تحت أشراف (أندريا دوريا). وكان (خير الدين) يطلع السلطان على تطور المفاوضات في كل مرحلة من مراحلها، وعندما وصلت مهمة وفد المفاوضات المكون من ثلاثة مفاوضين برئاسة الدكتور (اومبرو) حتى نهايتها، ووفقاً لخطة متفق عليها بين خير الدين والسلطان بادر هذا بالقاء القبض على (الجواسيس الثلاثة) وأودع الدكتور (أومبرو) في سجن (قلعة الحصون السبعة) بتهمة حث أحد الرعايا العثمانيين على العصيان. وكان وقع هذا الفشل مريراً على نفس (أندريا دوريا) بقدر ماكان مزعجاً لامبراطوره (شارلكان) الذي علق أملاً كبيراً في إحراز نصر كبير بثمن بخس ان هو استطاع ضم (خير الدين) لقوته.

ولم يبق أمام (شارلكان) غير الحرب، فتحرك باسطوله الضخم مغادراً (مرسى ماهون) يوم ١٨ تشرين الأول- اكتوبر - سنة ١٥٤١، ووصل الى (جون الجزائر) في الساعة السابعة من صباح يوم (٢٠)

تشرين الأول ـاكتوبرـ وأخذ في إجراء عرض قواته البحرية أمام مدينة الجزائر لارهاب حاميتها ثم توجه باسطوله الى طرف الخليج المقابل لمدينة الجزائر، عند رأس (تامنتغوس ـ أو تامانتغوس) وخيم هناك مؤقتاً، ثم عاد مباشرة نحو الضفة اليسرى لوادي الحراش. وهنالك أخذ بإنزال جنده منذ فجر يوم الأحد ٢٣ تشرين الأول ـاكتوبرـ وفي الساعة التاسعة من اليوم ذاته، نزل الامبراطور الى الأرض، محاطاً بالأشراف والنبلاء ورجال الحاشية، وأقام المركز العام لأركان حربه الامبراطوري عند (الحمة أو الحامة) شرقي مدينة الجزائر (حيث حديقة التجارب الان). وذلك على مقربة من مركز التجمع العام. الواقع بين الحمة وضفة الحراش.

فأسرع (محمد حسن) بتجميع كل ما لديه من القوى، واستعد للدفاع، وقرر مع أركان حربه تطبيق الخطة التي نجح الجزائريون في تنفيذها خلال معاركهم السابقة مع الاسبانيين والتي مكنتهم من النصر مرتين متتاليتين. فتحصنوا في المدينة ينتظرون تطور الأحداث ويراقبون بدقة تحركات الاسبانيين ومناوراتهم.

وعلى هذا فما أن وطأت أقدام الاسبانيين أرض الجزائر، حتى انطلق المجاهدون الجزائريون للعمل تحت قيادة (المجاهد الحاج بشير) وهم يحيطون بالقوات الاسبانية من كل اتجاه، ويوجهون اليها ضربات مباغتة سريعة بواسطة زمر من الفرسان القليلة في عدد أفرادها والسريعة في انقضاضها وانسحابها بحيث لم تترك للقوات الاسبانية فرصة للراحة أو النوم.

وقرر الامبراطور البدء بتنفيذ معركته في يوم ٢٤ تشرين الأول ـاكتوبرـ فتولى بنفسه قيادة التحرك نحو الأمام، على رأس الفيلق

الألماني، وترك للفريق الإيطالي وفرسان مالطة مهمة حماية المؤخرة تحت قيادة حفيد البابا (كاميل كالونا). واستمر الامبراطور في تقدمه، واستمر المجاهدون في الإغارة على القوات الاسبانية، وأرغموها على التوقف حيناً عند إحدى الربوات، وفي النهاية وصلت القوات الاسبانية الى (كدية الصابون - الواقعة على مرتفع خلف مدينة الجزائر)، حيث دارت معركة قاسية مع المجاهدين، تمكن الامبراطور بعدها من احتلال الموقع الاستراتيجي (للكدية). ووضع أعتدته الثقيلة فيها واتخذ منها قاعدة للهجوم ثم بدأ على الفور بتوسيع قاعدة عملياته، فاحتل مجموعة التلال التي تصل ما بين (كدية الصابون) و(قنطرة العفرون) قرب البحر غربي الجزائر. وبذلك باتت مدينة الجزائر مطوقة ومعزولة في البر والبحر.

وعند ذلك، أرسل (شارلكان) من قبله مندوباً (هو الفارس لورنزو مانويل) لإقناع حامية الجزائر بالاستسلام بعد أن باتت مطوقة، وبعد أن ظهر لها مدى التفوق الكبير في القوى التي احاطت بالمدينة، ووصل المندوب الى الجزائر، وأبلغ (محمد حسن) الرسالة التي يحملها وهي كالتالي:

«أنا ملك اسبانيا الذي استولى على تونس وأخرج منها خير الدين، وتونس أعظم من الجزائر وخير الدين أعظم منك» فأجابه (محمد حسن آغا) بالرسالة التالية: «غزت اسبانيا الجزائر في عهد عروج مرة، وفي عهد خير الدين مرة، ولم تحصل على طائل، بل انتهبت أموالها وفنيت جنودها، وستحصل المرة الثالثة كذلك إن شاء الله».

في الليلة ذاتها، وصل الى معسكر شارلكان رسول من قبل والي

الجزائر (محمد حسن آغا) يطلب إذناً للسماح بحرية المرور لمن أراد من أهل الجزائر وخاصة نساء ها وأطفالها مغادرة المدينة عبر (باب الواد). وعرف (شارلكان) أن حامية الجزائر مصممة على الدفاع المستميت، وأنه من المحال احتلال الجزائر الا إذا تم تدميرها تدميراً تاماً. ولم يكن الامبراطور قد أنزل مدفعية الحصار حتى تلك الساعة، فلم يتمكن بذلك من قصف الجزائر بالمدفعية، وفي الوقت ذاته كان المجاهدون الجزائريون يوجهون ضرباتهم الموجعة الى القوات الاسبانية، في كل مكان، حتى قال أحد فرسان مالطة في تقريره عن المعركة:

«لقد أذهلتنا هذه الطريقة في الحرب، لأننا لم نكن نعرفها من قبل». وكانت أعداد المجاهدين تتعاظم باستمرار بفضل تدفق مقاتليهم من كل مكان بمجرد سماعهم بإنزال القوات الاسبانية. وكان هؤلاء يستفيدون في توجيههم لضرباتهم من معرفتهم الدقيقة بالأرض واستخدامهم لميزاتها بشكل رائع.

وبدأ المطر الغزير في السقوط مع بداية الليل، وكانت كثافة الأمطار وغزارتها تتزايد مع تقدم الليل. بينما هبت ريح عاتية من الشمال الغربي، فتعالت الأمواج وتشابكت، وأصبح الأسطول الذي يحمل السلاح الثقيل ـالمدفعيةـ والأعتدة والمواد التموينية أمام مأزق خطير. ولم يكن للاسبانيين في تلك الليلة خيام يحتمون فيها من وابل المطر، إذ لم يكونوا قد جاؤا بالعتاد اللازم من السفن. فكان لا بد لهم من قضاء شر ليلة بين الماء والوحل بعد أن قضوا أسوأ نهار في المسير والاشتباك بنيران المجاهدين.

ثم أقبل الفجر أخيراً على المجاهدين الذين لم يناموا ليلهم وهم في مدينة الجزائر المحاصرة يستعدون للمعركة الحاسمة. وارتفع الأذان

من المساجد داعياً الناس لبيوت الله، ورددت عشرات مآذن المدينة الدعوة، فأنزلت السكينة على النفوس. وما كادت تنقضي الصلاة، حتى فتحت أبواب المدينة بصورة مباغتة، وتدفقت موجات المجاهدين وهي تردد بصوت واحد صيحة الحرب (الله أكبر).

وقاد المجاهد (الحاج البشير) الهجوم على ميمنة الخط الاسباني، وكانت مستقرة أمام رأس تافورة (بين إدارة البريد المركزي اليوم والبحر). وتلقت الفرقة الإيطالية الصدمة الأولى، فلم تتمكن من الصمود لها، واستولى عليها الرعب والفزع، فتقهقرت متراجعة بدون نظام حتى وصلت الى معسكراتها. وازداد المجاهدون إقداماً واندفاعاً لاستثمار هذا النصر الأول. فواصلوا هجومهم في مطاردة فلول الهاربين الى أن اصطدموا بكامل الفرقة الإيطالية التي كانت تحتل القطاع الأوسط في التنظيم القتالي للقوات الصليبية. وعلى الرغم من التفوق الساحق للقوى الإيطالية، فقد اندفع المجاهدون بحماسة لا توصف لقتالها. ولم تتمكن الفرقة الإيطالية من الصمود أمام الهجوم القوي للمجاهدين. واضطرب أمرها. فولت منهزمة، وتشتت الى مجموعات صغيرة. ووجد المجاهدون الجزائريون فرصتهم لإبادة ما يستطيعون إبادته من هذه القوى الممزقة. ولم تتوقف المذبحة الا عندما تدخلت فرقة فرسان مالطة.

كانت هذه الفرقة تقف على مسافة بعيدة من مواقع القوات الإيطالية، فما كادت ترى ضراوة المعركة، وتمزق القوات الإيطالية، مما بات يهدد الجيش الامبراطوري كله بالدمار، حتى اندفعت بكامل قوتها، وتمركزت في الفج الصغير الذي يقع وراء الجسر والذي يمر منه الطريق المؤدي الى كدية الصابون، فضمنت بذلك حماية فلول

القوات الإيطالية، واضطر المجاهدون الجزائريون لايقاف هجومهم حتى لا يتعرض طريق انسحابهم للتهديد. وفي الوقت ذاته اندفع القائدان الصليبيان (كولونا والامير صالمون) ومعهما زمرة من الفرسان لايقاف الفرقة الإيطالية، ومنعها من التوغل في فرارها، وأمكن لهما بعد جهد كبير ايقافها وإعادة تجميع من بقي منها بعيداً عن أرض المعركة.

عند هذه المرحلة أصدر القائد (الحاج البشير) أمره الى المجاهدين بالتراجع المنظم مع المحافظة على التماس مع العدو حتى الوصول الى أسوار مدينة الجزائر وتحصيناتها، وتم تنفيذ عملية التراجع بطريقة رائعة حسبها فرسان ماطلة انسحاباً من المعركة. فانطلقوا بثقل قوتهم لما حسبوه مطاردة، حتى اذا ما وصل المجاهدون بكتلتهم المنظمة الى مسافة قريبة من حصن (باب عزون) قام رجال الدفاع الجزائريون بفتح الأبواب، ودخل المجاهدون، ثم أغلق الباب بسرعة وأحكم رتاجه وبقيت قوات العدو مكشوفة تجاه السور، تحت سيل المطر الغزير، ولم يعد باستطاعة فرسان مالطة التقدم الى الأسوار واقتحامها، كما لم يعد باستطاعتهم التراجع بعد أن أصبح سلاح الجزائريين يحصدهم جميعاً من وراء ظهورهم.

وامتطى الامبراطور (شارلكان) صهوة جواده حين بلغته انباء الكارثة التي نزلت بالقوة الإيطالية، وتقدم مع النبلاء ورجال الحاشية ومهرة الفرسان لنجدة فريق مالطة واقتحم مع قواته منطقة الخطر تحت نيران الحصون الجزائرية ففقدت القوات نصف عدد أفرادها. وأثناء ذلك لم يوقف الجزائريون من عرب الداخل عملياتهم على مؤخرة القوات المعادية. وزاد الأمر سوءاً بالنسبة لقوات الفرنج الصليبيين

عندما وقفوا عاجزين عن استخدام أسلحتهم النارية التي أفسدت السيول والأمطار بارودها وحولته الى كتل من العجين غير المتفجر. في حين كان المجاهدون فوق الأسوار يستخدمون أسلحتهم النارية بصورة رائعة، كما كان النازحون الأندلسيون يستخدمون بكفاءة عالية القسي الحديدية لرمي السهام البعيدة المدى بدقة مثيرة للإعجاب. وتكسرت موجات الهجوم واضطرت للانسحاب بعد أن تركت فوق أرض المعركة الغارقة بالوحل اعداداً كبيرة من القتلى.

وهكذا وبينما كانت معركة يوم ٢٥ تشرين الأول - اكتوبر - تسفر عن نصر حاسم لمصلحة القوات البرية الجزائرية، كانت العواصف تقوم بدورها لتمزيق الاسطول البحري الاسباني، إذ أدت الأمواج المتلاطمة الى ضرب قطع الأسطول بعضها ببعض- وخاصة منها سفن النقل الكبيرة - لتعمل على تحطيمها والقذف بها فوق أرض الساحل. وأسفر هذا الموقف عن كارثة حقيقية نزلت بالاسطول الصليبي، عندما تجاوز عدد سفن النقل التي تحطمت على الساحل (١٥٠) سفينة. وكان المجاهدون المسلمون من عرب البلاد الداخلية يغنمون ما فيها ويأسرون رجالها.

أما السفن الحربية التي كانت أمتن صنعاً وأحسن قيادة فقد انسحبت من موقع الخطر، مستعملة المجاذيف، واستمرت عمليتها هذه نحواً من أربع وعشرين ساعة. غير أن هذه السفن الحربية التي ناورت بمهارة مبتعدة عن مركز الخطر، كانت تحمل في جوفها خطراً أكبر، إذ كان العاملون على مجاذيفها من أسرى المسلمين المستعبدين في معظمهم، وكان هؤلاء يتابعون تطورات المعركة بحذر ويقظة، وتبين لهم أن لحظتهم المناسبة قد أزفت لتحرير أنفسهم من العبودية،

ولتقديم خدماتهم لاخوانهم المجاهدين في سبيل الله في الوقت ذاته. فتركوا المجاذيف، واندفعوا يجرون سلاسلهم واغلالهم الثقيلة ويبغون النجاة مهما كان الثمن. وأدت هذه العملية الى ارتطام (١٦) سفينة حربية بجدران الساحل. ونجح المجاهدون الجزائريون في انقاذ ألف وأربعمائة بحار منهم، وأنزلوهم بالجزائر.

وأراد الامبراطور (شارلكان) وأركان حربه إنقاذ ما يمكن إنقاذه مما قذف به الأسطول الى ساحل البحر من سلاح وعتاد الى جانب إنقاذ البحارة من القتل أو الأسر أو الغرق بعد أن انقلبت سفنهم وباتوا وهم يئنون تحتها بين الأمواج المتلاطمة. فبعثوا فرقة إنقاذ الى الساحل، غير أن هذه الفرقة وقفت عاجزة عن القيام بأي عمل. فقد سبقهم المجاهدون واستولوا على كل ما قذف به البحر، أما بقية محتويات السفن فقد أخذت طريقها الى عمق المياه، بما في ذلك المدفعية والمعدات والذخائر والمواد التموينية. وانتشرت قطع السفن المدمرة فغمرت مياه الساحل على امتداد مائتي كيلو متر، ما بين شرق دالس وغرب شرشال.

وكان (أندريا دوريا) يشرف على العمليات البحرية من فوق ظهر سفينته الضخمة (طومبيراس) ويحاول الدفاع عن رجاله وحماية متاعه وكل ما قذفت به الأمواج على الساحل وذلك بمنع وصول المجاهدين اليه، فكان يتقدم من الساحل وهو يصارع الأمواج، ويتابع رمي قنابله وقذائف مدفعيته، غير أن محاولاته لم تحقق هدفها، بل انها زادت من حجم الكارثة وتسببت في تدمير سفينة حربية أخرى.

لم يفقد الامبراطور (شارلكان) رباطة جأشه، وعلى الرغم من

استسلامه لقضاء الله وقدره وترديده باستمرار للعبارة التالية (فلتكن ارادتك يا رب). فقد مضى لإعادة تنظيم القوات، غير انه كان من المحال عليه معالجة المأزق الصعب الذي وقع فيه، فقد هيمن الرعب والفزع على قواته، وفقد معظم مواده التموينية فبات جيشه مهدداً بالجوع، بالإضافة الى أن قوة الجزائريين كانت تتعاظم باستمرار وهم يتابعون الموقف من وراء الاسوار ويستعدون للانقضاض على قواته من جديد.

وانطلق يستشير هيئة أركان حربه وكبار معاونيه ممن أبقت عليهم المعركة. وكانت الحلول المتاحة أمامه محدودة، فإما الإنسحاب ببقايا قواته واسطوله وإما إعادة تنظيم ما بقي لديه من القوى والوسائط واختيار بقعة مناسبة للدفاع عنها في انتظار تحسن المناخ ووصول إمدادات جديدة من أوروبا. وانقسمت وجهات نظر القادة في تأييد أحد الحلين الوحيدين.

وكان رأي قائد الأسطول (أندريا دوريا) هو العامل الحاسم في ترجيح أحد الاحتمالين ـ أو الحلين ـ. وقد حدد (أندريا) موقفه من الأزمة بوضوح، فأرسل من سفينته فدائياً أسبانياً، حمله رسالته، وقد استطاع هذا الفدائي مصارعة الأمواج والتسلل من بين المجاهدين حتى وصل الى خيمة الامبراطور، وأبلغه رسالة قائده التي جاء فيها: «وأما من جهة البحر فانه من المحال بقاء الاسطول في مركز الخطر داخل الخليج، لأن بقية السفن ستتحطم حتماً، إن هو لم يعمل على سحبها فوراً الى جهة (تامانتغوس) المواجهة لمدينة الجزائر على الطرف المقابل من الخليج، وأما من جهة البر، فإنه يرى بأنه من المحال أيضاً البقاء أو الانتظار وأنه من الواجب الانسحاب فوراً ببقية الرجال،

وركوب سفن الاسطول الباقية للوصول الى جهة ـتامانتغوس» . وأيد معظم قادة الجيش وجهة نظر قائد الاسطول، إلا القائد الاسباني (فرناندو كوريتز) الذي كان يرى وجوب البقاء والمقاومة[1] ووقف معه أيضاً الكونت (د. الكوديت) حاكم وهران العام. وهكذا رجحت كفة الانسحاب، وبدأت المسيرة الشاقة للابتعاد عن الأسوار، واختراق ضفة البحر، للوصول الى رأس (تامانتغوس). ونظراً لنفاد المواد التموينية، فقد أمر الامبراطور بذبح الخيول التي كانت لدى الجيش، وتوزيع لحمها لإطعام الرجال، مبتدئاً بذبح تلك الخيول العربية البديعة التي جاء بها لنفسه. وبات الجيش الصليبي في تلك الليلة وراء (وادي خنيس). ثم استأنف الجيش تحركه في اليوم التالي (٢٧ تشرين الأول ـ اكتوبر) حتى وصل وادي الحراش. ولما كانت مياه الطوفان قد ارتفعت كثيراً فقد بات من المحال متابعة المسير. وتم التوقف أمام الوادي.

وفي صبيحة يوم الجمعة (٢٨ تشرين الأول ـ اكتوبر) استطاع الجنود صنع جسر من أخشاب السفن عبروا عليه الى الضفة الأخرى. وتابعوا تحركهم البطيء حتى وصلوا (وادي الحميض ـ أو الحمير) فباتوا عنده. واستؤنفت المسيرة يوم السبت (٢٩ ـ تشرين الأول ـ اكتوبر) وأمكن الوصول في النهاية الى رأس (تامانتغوس).

لم تكن مشاق الطريق ووعورته وصعوبة التحرك هي كل ما

---

(١) اكتسب (فرناندو كوريتز) بجدارة شهرة جلاد امريكا الجنوبية ـ أو السفاح ـ وكان حافزه للبقاء والمقاومة هو رؤيته لسفينته المحملة بالكنوز من الذهب والفضة والحجارة الكريمة التي اغتصبها من اصحابها سكان القارة الامريكية وقد غرقت في مياه الجزائر، فلم يبق له من أمل في الحياة الا كسب المعركة على أمل التعويض عن بعض ثروته المفقودة.

تعرض له الجيش الصليبي أثناء تراجعه، وإنما كانت الصعوبة الحقيقية هي في رد الاغارات التي شنها المجاهدون الجزائريون والتي لم تتوقف طوال أيام المسير، في الليل كما في النهار، مما اضطر الامبراطور (شارلكان) الى وضع الفرقة الإيطالية في الميمنة، وعلى أبعد مسافة من الضربات المحتملة للجزائريين، في حين أسند حماية المجنبة اليسرى والمؤخرة للفرسان المالطيين والمشاة الاسبانيين. وتولى هو بنفسه قيادة المؤخرة، لرد هجمات المجاهدين، وإنقاذ من يسقط من الرجال. وبذلك لم تصل القوات الى منطقة أنقاض مدينة (رسغوليا) ـ المدينة الرومانية القديمة ـ إلا وقد استنزفت المسيرة بقية ما تمتلكه من القدرة والجهد. وقضت بتلك الأطلال يومي الأحد والاثنين، حيث استعادت بعضاً من قوتها، ثم بدأت عملية ركوب البحر يوم الثلاثاء (الفاتح من تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ) وانتهت عملية الركوب يوم (٣) تشرين الثاني، وكان الامبراطور هو آخر رجل ركب البحر الى مدينة بجاية، وفي الطريق ابتلع البحر المائج بعضاً من السفن أيضاً، وأصاب بعضها بالعطب، فكانت أعمال الاصلاح والترميم تتم فوق السفن بلا انقطاع وتوقف. وعندما وصلت القوات الى بجاية. وجدت أن الموقف أسوأ مما كان متوقعاً. فقد أحكم المجاهدون العرب الحصار على الحامية، ومنعوا عنها التموين، إلا ما كان يقدمه بعض العملاء بأثمان خيالية وبكميات محدودة. ومضى الامبراطور الى المساجد التي تم تحويلها الى كنائس، يمضي معظم وقته بالصلوات والابتهالات. وأصدر أمره بابقاء الكنائس مفتوحة في الليل والنهار للعبادة. كما أعلن الصيام تذللاً الى الله وخشوعاً. ولم يجد الامبراطور في بجاية ما يعمله فأصدر أمره بجمع اليهود وقتل بعضهم واسترقاق الآخرين وبيعهم في أسواق أوروبا.

ومكث الامبراطور أربعة عشر يوماً في (بجاية). وغادرها يوم (١٦) تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٤١م بعد أن وعد حاميتها بالدعم السريع والامداد العاجل، وعندما وصل الى بلاده، رمى بتاجه الى الارض، واقسم الا يضعه على رأسه الا بعد استيلائه على الجزائر. وحرم نفسه من وضع التاج لأنه لم يتمكن ابداً من تحقيق هدفه. وبقيت الجزائر (المحروسة) منيعة على المعتدين.

فاقت نكبة الجيش الصليبي الذي قاده (شارلكان) كل نكبة تعرضت لها الحملات الصليبية من قبل. إذ بلغت خسارة هذا الجيش (٢٠٠) سفينة من بينها (٣٠) سفينة حربية و(٢٠٠) مدفع و(١٢) ألف مقاتل- بين قتيل وغريق وأسير- بالإضافة الى كامل عتاد الحملة وتجهيزها وتموينها. وكانت غنائم المسلمين عظيمة وصفها أحد مؤرخيهم بقوله: «وبقيت الجزائر كالعروس تختال في حليها وحللها من رخاء الأسعار، وأمن الأقطار ولم يبق لهم عدو يخافون منه، وشاعت هذه القضية في مشارق الأرض ومغاربها، وبقي رعب المسلمين في أعداء الدين مدة من الزمن بأمن الملك العلام... وخلف اللعين لأهل الجزائر ما ملأ أيديهم غناء، وكسبت البلاد من ذلك أموالاً طائلة، وفرج الله على أوليائه المسلمين»(١).

وفي يوم ٢٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٥٤١ بعث الكونت (الونزو دي قرطبة) تقريراً من وهران الى والده (الكونت د. الكوديت) حاكم وهران. حيث كان ينوب عنه أثناء غيابه وجاء في التقرير ما يلي:

---

(١) عن: حرب الثلاثمائة سنة، احمد توفيق المدني، ص ٢٩٧- ٢٩٨.

«وردتني معلومات جديدة وموثوقة من الجزائر تفيد بأن الأتراك انقذوا خمساً من السفن - الاسبانية - التي سحبت أربع منها سالمة الى الساحل، أما الخامسة فمصابة بعطب بسيط. كما أخرج - الجزائريون - من الماء ستين مدفعاً بين كبير وصغير - منها عشرين مدفعاً ضخماً. وأرسل حسن آغا مندوباً من قبله الى ملك تلمسان (الملك محمد) يسأله الإعانة استعداداً لتلقي صدمة الأرمادا الجديدة. كما أرسل مندوبين عنه الى (فليز - أوباديس) على الساحل الشمالي المغربي من أجل صناعة سفن وابتياع أشياء تحتاجها مدينة الجزائر. كذلك أرسل - حسن آغا - مندوبين اختارهم من بين الفضلاء، وجهزهم تجهيزاً حسناً، الى (حامد بن سليمان) وهو الآن شيخ محلة ملك تلمسان، يسأله القدوم لنجدته في الوقت الذي يعينه له. فأجابه الشيخ حامد: بأنه سيقدم حالاً للنجدة إذا بقي على رأس المحلة. كذلك استصرخ حسان آغا لنجدته القائد المنصور وكبار المرابطين بالمملكة التلمسانية».

تلقى (محمد حسن آغا) والي الجزائر ونائب (خير الدين) لقب (الباشا) مكافأة له على ما قدمه من جهد، وما بذله من تضحية، وما أظهره من كفاءة في إدارته للبلاد وفي إحباطه للهجمة الصليبية التي قادها (شارلكان) والتي كان له فضل لا ينكر في إدارة حربها. ومضى (محمد حسن باشا) الى حشد الإمكانات والقوى بمجرد الانتهاء من معركته. وعمل على استثمار الظفر فتقدم على رأس جماعة قليلة من الجيش الى (بسكرة) وغيرها من بلاد (الزيبان) وما يحيط بها حتى تخوم الصحراء، وأسفرت رحلته هذه عن انضمام كل هاتيك الجهات الى النظام الجديد الذي ثبتت جذوره في العاصمة الجزائرية.

لكن أعداء الداخل لم يتوقفوا عن التآمر مع أعداء قومهم

ودينهم، وكان زعيم عائلة ابن القاضي في (كوكو) وهو (محمد بن محمد) من أبرز المتآمرين. وكان شارلكان في حاجة بعد هزيمته لدعم مثل هؤلاء الخونة. فدعم اتصالاته بهم.

وفي تلمسان، قاد (أبو زيان) شقيق الملك محمد - المرتبط بمعاهدة تحالف مع (شارلكان) حركة تمرد، ودعمه (محمد حسن باشا) بالقوات وأمكن دحر (الملك) وإخراجه من تلمسان. وعندئذ تحرك حاكم وهران (الكونت. د الكوديت) لدعم (الملك محمد). ووقعت معركة بين (الملك محمد والقوات الاسبانية) من جهة وبين (أبو زيان) والقوات الوطنية الجزائرية من جهة أخرى عند (شعبة اللحم) على نحو ستة كيلو مترات الى الشمال الشرقي من (عين تموشنتْ). وبعد قتال ضار انتصر المسلمون، وتمكنوا من إبادة القوة الاسبانية في شوال ٩٥٠ـ هـ (كانون الثاني - يناير - ١٥٤٣). وعندما علم (شارلكان بالكارثة الجديدة، أرسل جيشاً من (١٥) ألف مقاتل الى حاكم وهران بمهمة الاستيلاء على (تلمسان) واخضاعها من جديد، واستطاع السلطان محمد حشد مثل هذا العدد. فأمكن له بذلك استعادة سيطرته على تلمسان. غير أن أخاه (أبا زيان) عاد فنظم قواته، ودعمه أهل تلمسان والمسلمون، وأمكن له في (معركة الزيتون) الانتصار على أخيه (الملك محمد) الذي فر الى بلاد (انكاد) للاستنجاد بقبيلتها القوية. غير أن هذه القبيلة، وقد عرفت خيانته وتعاونه مع أعداء الدين، عملت على قتله هو ومن معه، وانتهت بذلك حياة أخطر أعداء الداخل وعادت تلمسان لتسهم مع الجزائر في بناء المستقبل.

هـ - الصفحة الأخيرة في حياة (خير الدين)

لم يكن (خير الدين) وهو في عاصمة الامبراطورية

(القسطنطينية) يمارس عمله قائداً أعلى للاسطول الإسلامي العثماني، غافلاً أو متغافلاً، عما يدبره أعداء المسلمين. وقد تابع المراحل المختلفة التي أعد فيها (شارلكان) حملته. وقد اقترح منذ شهر حزيران (يونيو) ١٥٤١ تجهيز اسطول حربي من مائة سفينة، يتم إرسال خمسين سفينة منها الى مياه الجزائر لاعتراض الاسطول الاسباني. في حين يتم ارسال خمسين سفينة أخرى لاعتراض هذا الاسطول وهو في عرض البحر. غير أن المسؤولين في الديوان -الوزارة- لم يوافقوا على الاقتراح بحجة أن الجهد الحربي الذي تتطلبه الدولة في صراعها مع الغرب يتطلب المحافظة على الكتلة الرئيسية للقوات البحرية في مياه شرقي المتوسط. غير أنه تقرر إرسال دعم عاجل بمجرد التأكد من تحرك (شارلكان) الى الجزائر. بحيث يقف الاسطول الاسباني عندها محاصراً بين القوات الجزائرية براً، والأسطول العثماني بحراً. وهكذا فما كادت أخبار الحملة الاسبانية على الجزائر تصل الى الديوان حتى جهز (خير الدين) اسطولاً قوياً، وتولى قيادته بنفسه وهو ييمم شطر مياه الجزائر. غير أن معركة الجزائر لم تستمر أكثر من (١٢) يوماً- من الأحد ٢٣ تشرين الأول - اكتوبر- وحتى يوم الخميس ٣ تشرين الثاني - نوفمبر- ١٥٤١.

وعندما وصل (خير الدين) كانت المعركة قد انتهت بالانتصار الحاسم للقوات الجزائرية. وتوقف (خير الدين) فترة قصيرة، اطلع فيها على تطورات الموقف، وشارك شعبُ الجزائر فرحة انتصاره. ثم انطلق باسطوله نحو المياه الأندلسية والمياه الإيطالية، متنقلاً ما بين مدنها الساحلية، موجهاً الإغارات للتوغل داخل الأقاليم حيث كان المجاهدون يندفعون بحماسة فيقتلون ويأسرون ويغنمون، وهم في ذلك كله ينتقمون لما حل بالمسلمين في تونس ووهران وتلمسان.

وبجاية، علاوة على ما نزل بمسلمي الأندلس. وحصل المسلمون على مغانم ضخمة، هي بعض ما غنمه الاسبانيون من ثروات العالم الجديد (أمريكا الجنوبية).

ولم يكن باستطاعة بقايا الاسطول الاسباني الخروج لاعتراض (خير الدين) بعد خسارته الفادحة في الجزائر، فمارس المسلمون اغاراتهم بحرية مطلقة.

وفي تلك الفترة حدث تحول على الساحة الأوروبية. فقد تدهورت العلاقات من جديد بين ملكي اسبانيا وفرنسا. وكان الاسبانيون قد قتلوا في (لومبارديا) بايطاليا رسولين فرنسيين، كانا يعبران البلاد الإيطالية المحتلة وهما تحت لواء السلام المنعقد بمدينة (نيس). وكان أولهما يحمل رسالة لدولة البندقية. في حين كان الثاني يحمل رسالة للسلطان (سليمان القانوني) فعادت الحرب بين الدولتين الى سيرتها الأولى. ومد السلطان سليمان يده من جديد الى (فرانسوا الأول - ملك فرنسا) ضد العدو المشترك (شارلكان). وتولى (خير الدين) قيادة الاسطول، وجعل من مدينة (مارسيليا) قاعدة لقيادته ومقراً لاسطوله وهناك - في مارسيليا - باع خير الدين ورجال اسطوله الغنائم التي حملوها معهم من اسبانيا، كما باعوا فيها رقيق الاسبان من الرجال والنساء. فتداولتهم أيدي القوم، .واشتراهم الافرنسيون بضاعة رابحة، ثم اخذوا يبيعونهم بأرباح طائلة الى يهود (ليفورنو) الإيطالية، وكان هؤلاء بدورهم يعيدون بيع الأسرى الارقاء الى الامبراطور (شارلكان) بأرباح خيالية. وانضم الاسطول الفرنسي الى الأسطول العثماني بأمر من ملك فرنسا. ووضع قائد الاسطول الافرنسي (الامير فرانسوا دو بوربون) قواته تحت قيادة (خير

الدين) باعتباره القائد العام للقوات المتحالفة (العثمانية- الافرنسية). وكان أول عمل قام به (خير الدين) هو قيادة القوات لمهاجمة (نيس) وطرد (حاكمها دوق سافوا) وانتزاعها من الحكم الاسباني وإعادتها لملك فرنسا. ثم استقر خير الدين باسطوله في مدينة (طولون) وجعلها قاعدة للجيش الاسلامي والاسطول الإسلامي، بعد أن غادرها معظم سكانها بأمر ملك فرنسا، وتركوها في أيدي المسلمين. ثارت ثائرة المسيحية جمعاء ضد هذا التصرف الافرنسي. وأخذت الدعاية المضادة للمسلمين تجتاح أرجاء أوروبا، يحملها الاسبان وغلاة الصليبية، ويستثمرونها الى أقصى الحدود. ومن ذلك قولهم: (ان خير الدين قد اقتلع أجراس الكنائس، فلم تعد تسمع في طولون إلا أذان المؤذنين) وبقي خير الدين والجند الإسلامي بمدينة طولون حتى سنة ١٥٤٤م.

وكان (شارلكان) أثناء ذلك قد هاجم شمال شرقي فرنسا، وانهزم تحت جدران (شاتو تييرى)[١] ثم اضطر للذهاب الى المانيا، حيث كانت حركة التمرد البروتستانتي ضد الكاثوليكية بصفة عامة، وضده بصورة خاصة، قد أخذت أبعاداً خطيرة. وأرغمه ذلك ـ بعد أن هوى نجمه وذبل عوده بنتيجة نكبته أمام الجزائر- الى عقد معاهدة مع ملك فرنسا يوم ١٨- أيلول (سبتمبر) ١٥٤٤ في مدينة (كريسبي دي فالوا)[٢]. ونتج عن هذه المعاهده جلاء (خير الدين) وقواته عن

(١) شاتو- تيري: (CHTEAU - THIERY) قصر في دائرة (الايسن AISINE) على بعد ٤١ كيلو متراً من سواسون: (SOISSON S) على نهر المارن.

(٢) معاهدة كريسبي (LA PAIX DE CRESPY) هي المعاهدة التي تم التوقيع عليها بين فرانسوا الاول وشارلكان لايقاف الصراع بينهما. وكريسبي: (أوكريبي: CREPY) هي مدينة في الايسن: AISNE مقاطعة (لوان: LOAN)

مدينة (طولون) ورجع الى العاصمة (استانبول). وبما أن الحرب لم تتوقف بين اسبانيا والمسلمين، فقد استمر (خير الدين) في ممارسة الأعمال القتالية أثناء طريق عودته، فتوقف امام مدينة جنوة، وارتاع مجلس شيوخها، فأرسل له مجموعة من الهدايا الثمينة مقابل عدم التعرض للمدينة بأذى، فتابع (خير الدين) طريقه حتى وصل جزيرة (البا) التي كانت تحت حكم اسبانيا - والتي أصبحت منفى نابليون بونابرت فيها بعد - فاحتلها، وغنم ما بها، كما احتل عدداً من المدن الساحلية، من بينها مدينة (ليباري) ورجع الى العاصمة وسفنه مثقلة بالغنائم فاستقبل كأحسن ما تستقبل به الأم أبناءها البررة.

ولم يعمر خير الدين بعد ذلك طويلاً، ومضى الى جوار ربه، وكان قد سبقه رفيق جهاده - واليه على الجزائر محمد حسن باشا سنة ١٥٤٤م. فتم تعيين المجاهد (القائد الحاج بكير) لولاية الجزائر بصورة مؤقتة ريثما يتم تعيين وال جديد.

وتوفي (خير الدين) ولم يترك من الولد بعده إلا ابنه حسان وكانت أمه عربية من مدينة الجزائر.

واعترافاً بفضل خير الدين، وتلبية لرغبة الجزائريين، أسند السلطان (سليمان القانوني) رتبة (أمير البحر- باي لرباي) الى ابن خير الدين الوحيد (حسان) الذي ولد بمدينة الجزائر وتربى بين أهلها، وتعلم على أيدي علمائها. وكانت أمه سليلة احدى بيوتاتها الكبيرة.

وغاب بوفاة (خير الدين) نجم طالما أضاءت له سماء المسلمين في البر والبحر، وانطوت بغيابه صفحة ناصعة من صفحات الجهاد في سبيل الله لتبدأ صفحة جديدة.

غير أن ما تركه للدنيا يبقى خالداً في الدنيا، وما عمله لآخرته يلقاه خالداً مع الخالدين. وأفضل ما أقامه في الدنيا هو تكوينه للدولة الجزائرية التي أخذت على عاتقها واجب (الجهاد في سبيل الله) ضد كل الحملات الصليبية.

و- خير الدين وموقعه في فن الحرب

لم تكن حروب (خير الدين) في البر والبحر إلا نوعاً من (حروب الإيمان) التي عرفها العرب المسلمون ونشروها على الدنيا كلها. ولقد أبرزت الملامح العامة لسيرة (خير الدين) وفقاً لما سبق عرضها أن هذا القائد العظيم قد جابه في حياته صعوبات لا نهاية لها، بل إن هذه السيرة لم تكن أكثر من سلسلة من العقبات والصعوبات الآخذ بعضها برقاب بعض والتي لم يكن أقلها مجابهة قوات متفوقة على قوته بما لا يمكن قياسه أو مقارنته في موازين القوى التقليدية، ولم يكن أقلها أيضاً التعرض لنكسات مريرة وصلت به الى حد التجرد من كل القوى، إلا قوة الثقة بالنفس والإيمان الذي لا حدود له، والتي لم يكن أقلها كذلك فقد الأعزاء- أخوته في الدم وفي الجهاد في سبيل الله حيث سقط الثلاثة فوق ثرى المغرب العربي الإسلامي-.

والأمر مماثل فيما تلقاه (خير الدين) من الغدر على أيدي أعداء الداخل من الخونة والذين خذلوه المرة بعد المرة، غير أن ذلك لم يضعف من تصميمه، أو ينال من عزيمته. ثم جاءت أخطار البحر والجوع والعطش والحرمان كلها لتحتل مكانتها في جملة ما جابهه (خير الدين) من العقبات والصعوبات.

وقد كان من المحال احتمال ذلك كله - أو حتى بعضه لولا



ضريح البطل خير الدين باشا بحي باشكطاش باستامبول

(الإيمان المطلق) ولولا ما يفرضه هذا الإيمان من فضائل كثيرة: كالوفاء والاخلاص وإنكار الذات والاستعداد الدائم للتضحية والصدق والشجاعة بكل أشكالها.

وكانت حروب (خير الدين) نوعاً من (حروب الإيمان) في البر والبحر، وهو ما أكدته سيرة القائد الخالد، وهو ما تبرزه القصة التالية:

«عندما توفي عُروج، وأسندت الى خير الدين القيادة، استدعى رجاله ليتهيأوا للحرب ضد الاسبان الصليبيين، وبينما هو يعمل من أجل إخراج هذه الفكرة من حيز القول الى حيز العمل، إذ جاءه رسول من ملك اسبانيا (شارلكان) يأمره بالتخلي عن الجزائر لأنها كانت تحت تصرف الاسبان، ويستطيع الاسبانيون أن يخرجوها من أيدي العثمانيين وخيّر ملك اسبانيا (خير الدين) بين أمرين: أولهما أن يسلمها دون قتال، وثانيهما أن يستعد للقتال. وذكر له بأنه يجب ألا ينسى أن الاسبان لم يخذلوا في معركة، وأنهم قتلوا أخويه الياس وعروج، وان تمادى فيما هو عليه وركب رأسه فان عاقبته ستكون كعاقبة أخويه. فأجاب خير الدين: «**سترى غداً، وإن غداً ليس ببعيد، أن جنودك ستتطاير أشلاؤهم، وإن مراكبك ستغرق، وإن قوادك سيرجعون إليك مكللين بعار الهزيمة**».

عند ذلك طاش عقل الملك من هذا الجواب الحاسم، وطار لبه، وجهز كل ما عنده من قوة وحضر الى الجزائر، وخرج له خير الدين ومعه حزم وعزم، وتلا على جميع قواده وجنوده قوله تعالى (**إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**). وتقدم للميدان ومعه رجاله، وقال لهم: (**ان المسلمين في المشرق والمغرب يدعون لكم بالتوفيق، لأن**

انتصاركم انتصار لهم، وإن سحقكم لهؤلاء الجنود الصليبيين سيرفع من شأن المسلمين وشأن الإسلام). فصاحوا كلهم (الله أكبر) وهاجموا الاسبان فأبادوهم عن آخرهم»[1].

إن هذه الصورة لا تختلف ابداً، لا في شكلها ولا في مضمونها عن صور أولئك القادة المجاهدين في سبيل الله، والذين خرجوا من جزيرتهم فحملوا الى الدنيا رسالة الاسلام. غير أن الموقف العام لم يكن في عهد (خير الدين) مشابهاً لما كان عليه أيام الفتح، فقد أخذ الضعف طريقه الى قلوب المسلمين وأنظمتهم، فقد كانوا من قبل تحت قيادة واحدة لا تسمح لأعداء الداخل بالظهور أو بممارسة دورهم في التأثير على التيار العام. في حين أصبح لهؤلاء دورهم في توجيه الأحداث وكان أخطر ما في الأمر أن هؤلاء كانوا يحتلون مراكز قيادية تسمح لهم بممارسة دور خطير ضد مواطنيهم وإخوانهم في الدين.

والواضح ان قضية (أعداء الداخل) هي من أخطر القضايا التي جابهت المسلمين في عصر التحول من الهجوم الشامل الى الدفاع الشامل، وهي الظاهرة التي سبق لها أن برزت أيام الحروب الصليبية في المشرق، ثم تكرر حدوثها في الأندلس الاسلامية، وجاءت لتبرز من جديد على مسرح أحداث المغرب العربي- الإسلامي، فكانت في طليعة العقبات التي اصطدم بها (خير الدين) والتي أمكن له معالجتها بحزم أحياناً، وباللين والاغراء في أحيان أخرى، وفقاً لما كان يتطلبه الموقف.

وقد كان القضاء على أعداء الداخل هو المرحلة الأساسية

---

(١) تاريخ الجزائر- الاستاذ مجاهد مسعود - الجزء الاول ص ٨١- ٨٢.

لتحقيق الانتصار الخارجي. ومن هنا أيضاً، فقد كان للانتصار الخارجي دوره بإضعاف أعداء الداخل وكشف خياناتهم، الأمر الذي ساعد على تصفيتهم. ولقد بقيت هذه العلاقة الجدلية الثابتة بين القوة الخارجية والقوة الداخلية هي العلاقة الثابتة والمميزة لقوة الأنظمة وقدرتها على البقاء والاستمرار، والأمر صحيح بالنسبة للعلاقة الجدلية المضادة، فالتمزق الداخلي وبروز (أعداء الداخل) ما هو إلا دليل في الواقع على مرحلة احتضار الدول وبرهان على قرب انهيارها. ومن هنا أيضاً تظهر أهمية الدور الذي اضطلع به خير الدين في انقاذ المغرب العربي الإسلامي من المحنة التي كان يجابهها، والتي كان يتعرض لها. فقد أدت الهجمة الصليبية الى ظهور الطبقة المتسلطة من (أعداء الداخل)، ولم يكن هناك من أمل لتحويل التيار إلا بظهور قوة يمكن لها مجابهة القوى الصليبية، الأمر الذي يفسح المجال للقوى المؤمنة الصادقة لممارسة دورها التاريخي والاضطلاع بمسؤوليتها القومية والدينية، وكانت الجزائر بأرضها وبشعبها منبت تلك القوى التي عملت على تحويل تيار الاستسلام الى تيار المجابهة.

لقد استطاع (خير الدين) مجابهة الهجمة الصليبية في أشرس مراحلها، مرحلة تصفية الأندلس الاسلامية، واستطاعت (الجزائر المحروسة) مجابهة الهجمة الصليبية وهي في ذروة قوتها وجبروتها. ونشأ عن هذا التلاحم الصادق بين (تيار الأحداث) و(قصة البطل) ظهور الملحمة الخالدة. ملحمة بناء الجزائر قوة لها وللعرب المسلمين فوق كل أرض العرب المسلمين. غير أنه في مرحلة التحول الحاسم، كان من المحال إعادة العجلة الى الوراء، والعودة بالأندلس إسلامية كما كانت أيام الفتح، فقد أظهرت مسيرة الأحداث ـ عبر سيرة القائد خير الدين ـ تلك القوى الهائلة التي تكتلت للعمل ضد المسلمين في مشارق

الأرض ومغاربها وعلى كافة الجبهات في أوروبا كما في أفريقيا الاسلامية، وفي البر كما في البحر. ومن هنا تظهر أهمية الدور الذي اضطلع به (خير الدين) ومن ورائه (الامبراطورية العثمانية) في إيقاف الهجمة الضارية، والتصدي لها، والعمل على إحباطها. ومن هنا أيضاً تظهر كفاءة (خير الدين) السياسية، وتفكيره السليم، عندما ربط جهوده بجهود المسلمين في الجزائر- وفي المغرب العربي- الإسلامي من جهة مع جهود الامبراطورية العثمانية من جهة أخرى.

ذلك هو موقع (خير الدين) في التاريخ، انه قائد التحول في مسيرة الصراع من مستوى العمليات المحدود الى المستوى الشامل. ومن المستوى المحلي الى المستوى الدولي. ولقد مر هذا التحول بمراحل مختلفة، بداية من ممارسة القرصنة (الحرب الدفاعية المحدودة) الى مستوى العمليات المحدودة لمصلحة (دولة تونس) ومنها الى مستوى المغرب العربي - الإسلامي، ومن هذا المستوى الى مستوى العالم الإسلامي عبر ربط الصراع بالامبراطورية العثمانية. ولقد مر هذا التطور عبر الادراك التام لطبيعة المرحلة وطبيعة الصراع الذي كانت تخوضه الأمة العربية الإسلامية خاصة والأمم الاسلامية عامة، وهنا نعود إلى بداية القصة.

لقد خرج (عُرُوج) الى البحر غازياً مجاهداً لمقاومة الظلم الذي يتعرض له المسلمون في الأندلس وفي كل مكان من أوروبا، ووقع في قبضة الأسر، وعانى عبودية القيد،فكان لذلك دوره في تحديد هدفه من الصراع (الجهاد في سبيل الله). وانطلق مع أخوته، ومع فئة من المجاهدين، في هذه الحرب غير المتكافئة، ووظف الأخوة (ذوي اللحى الشقراء) انتصاراتهم لمصلحة (سلطان الحفصيين في تونس)

غير أن هؤلاء كانوا دون مستوى المسؤولية خلال تلك المرحلة التاريخية، وجاءت مسيرة الأحداث والتي دفع (الأخوة ذوي اللحى الشقراء) ومعهم الشعب المجاهد في المغرب العربي الإسلامي ثمنها غالياً من دمائهم وكرامتهم. وتأكد خير الدين عبر هذه التجارب الذاتية أنه من المحال مجابهة الهجمة الصليبية الشاملة بحروب محدودة ذات هدف محدود، كغنم سفينة أو الدفاع عن مدينة، أو الإغارة على جزيرة. فكان الدفاع الشامل هو الأسلوب الوحيد لمجابهة الهجوم الصليبي الشامل.

وكان (عْرُوج) وأخوته (أصحاب اللحى الشقراء) قراصنة، بذلك اشتهروا وبذلك عرفوا، غير أنهم لم يكونوا قراصنة في أساليبهم وأهدافهم. لقد خرجوا للجهاد في سبيل الله، فكانوا زاهدين بما يحوزونه من غنائم، وما أرادوا من الغنائم إلا استنزاف قدرة العدو وزيادة قوة المسلمين، بدلالة تقديم ما كانوا يحصلون عليه الى (والي تونس) والى (بيت مال المسلمين) والى صندوق الخزانة في الامبراطورية العثمانية.. وأفاد الجميع من هذه الغنائم ما عدا (الأخوة أصحاب اللحى الشقراء) غير أن فائدتهم كانت أكبر من كل تقويم عندما أمكن لهم دعم القدرات في الجزائر بعد أن أهدر (ملك تونس) هذا الدعم ووظفه في غير مصلحة الاسلام والمسلمين.

ولم يكن (خير الدين) يبحث عن (مجد شخصي) بدلالة عزوفه عن هذا المجد عندما عرضه عليه (شارلكان) في حين تهاوى (أعداء الداخل) فكان في ذلك سقوطهم، وكان في ذلك المجد الحقيقي والخالد للبطل (خير الدين) الذي ربط جهده وعمله ووجوده بقضية المسلمين. في حين انتهى أولئك الذين عملوا لدنياهم، وسطروا أبشع

صورة (لأعداء الوطن والدين).

يمكن بعد ذلك الانتقال للملامح العامة لأسس (فن الحرب) التي استخدمها (خير الدين) والتي مكنته من تحقيق انتصاراته الخالدة.

لقد كانت تلك الأسس في الواقع، صورة عن أسس (فن الحرب عند العرب المسلمين) بطرائقها التقليدية والثوروية. فقد بدأ (أصحاب اللحى الشقراء) بالبحث عن قاعدة قوية ومأمونة، بدأت (بحلق الوادي) و(جزيرة جربة) وانتهت بقاعدة الجزائر. وقد كان تكوين القاعدة القوية والمأمونة هو أول عامل من عوامل النجاح.

وكانت طرائق القتال - في البر والبحر- نموذجاً من الحروب التشتيتية - التي برزت كظاهرة مميزة في الحروب الثوروية الحديثة والتي تعتمد على مرحلتين أساسيتين - مرحلة الاستنزاف ومرحلة الهجوم الشامل-.

وفي الواقع فقد كان من المحال مجابهة التفوق للقوى الصليبية بغير هذا الأسلوب الذي أكد فاعليته في حروب الجزائر- الثلاثة وآخرها حملة شارلكان- بقدر ما أكد فاعليته في الحروب البحرية. حيث كانت تقوم مجموعات خفيفة الحركة، بتوجيه ضربات عنيفة ومباغتة ثم الانسحاب قبل أن يستفيق العدو من ذهول الصدمة. وقد أدى تنفيذ هذه العمليات باستمرار الى استنزاف قدرة العدو المادية والمعنوية قبل مجابهته بهجوم شامل يدمر بقية قدرته على الصمود والمقاومة.

ولقد كان من المحال تحقيق النجاح في مثل هذه العمليات لو لم

تتوافر كفاءة قيادية عالية، تتولى إدارة المعركة في كل مرحلة من مراحلها الصعبة.

وقد توافرت العوامل الثلاثة للنصر: شعب مجاهد في سبيل الله، وتطبيق رائع للعقيدة القتالية الإسلامية وقيادة على درجة عالية من الكفاءة.

بذلك انتصر (شعب الجزائر) وبذلك انتصر (خير الدين) فكتب شعب الجزائر مع خير الدين قصته الرائعة في الجهاد والمجاهدين.

ولم يكن (خير الدين) قادراً على تحقيق ما يريده لولا ما قام به شعب الجزائر المجاهد، وما كان شعب الجزائر ليصل الى هدفه لولا توافر قيادة حازمة مارس (خير الدين) دوره في تكوينها وصنعها لتصبح على مستوى الأحداث.

لقد مضى خير الدين الى جوار ربه راضياً مرضياً، وبقي شعب الجزائر يردد على مدى الدهر تلك الأسطورة الخالدة (أسطورة بابا خير الدين) الذي تولى قيادة الجزائر المجاهدة في أصعب ظروف الجهاد. وضمن لها مصادر القوة الذاتية- قوة الإيمان وقيم الجهاد في سبيل الله.

ومضى خير الدين الى جوار ربه راضياً مرضياً، وبقي المسلمون يرددون الأغنية الحلوة، أغنية القوة والكرامة: لقد نصر الله فنصره الله ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ صدق الله العظيم.

قــراءات

١ـ تجربة استعمارية (معاهدات اسبانية)
٢ـ في أدب الحرب ـ الشعر في الحض على القتال والجهاد
٣ـ عروج في الخالدين
٤ـ معاهدة ملك تلمسان مع الامبراطورية الاسبانية
٥ـ رسالة السلطان سليمان القانوني الى ملك فرنسا
٦ـ شارلكان ـ وبربروس

- ١ -

تجربة استعمارية

(معاهدات اسبانية)

كان رد ملك اسبانيا (فرديناند) على اقتراح قائده (دون بيدرو) هو التالي:

«ولتكن المعاهدة مع مولاي عبد الله مبنية على الواقع الحاصل ولتكن ذات مفعول دائم. وبما أن بجاية قد أصبحت ضمن ممتلكاتنا، تنفيذاً للقرار الصادر بذلك من الكنيسة الرومانية، فلا يمكن أن يعطى لمولاي عبدالله لقب - ملك بجاية - بل ليكن ملكاً على أي مكان يختاره فيما عدا البلاد الساحلية، إذ أن مدينة (بجاية) وملحقاتها ومداخيلها وتولي الأحكام فيها، وكذلك كل البلاد الأخرى والمدن والقرى الموجودة على ساحل البحر، يجب أن تكون لنا وحدنا خالصة بصفة تامة مطلقة، ولا يحق لمولاي عبد الله أن يدعي أي حق له عليها، أو أي حكم على سكانها من النصارى أو المسلمين. وبما أن البلاد المذكورة ومدنها وقراها هي من ممتلكاتنا الخاصة، فاننا نعترف لمولاي عبد الله بالملك على بقية البلاد الداخلية من المملكة مع مداخيلها وأحكامها، انما نحتفظ لأنفسنا بالحق الأعلى في الاشراف على القضاء

الذي هو من حق السيادة. كما يجب أن يلتزم الملك بدفع جزية سنوية تترك له حرية تقديرها. ويسمح لعبد الله ومائة من أعوانه أن يسكنوا مؤقتاً ربض بجاية إلى أن يجد عاصمة لملكه، وعلى شريطة أن لا يبني بذلك الربض مسجداً».

أيار (مايو) ١٥١٠

ونظراً لسحب القائد (بيدرو) من المغرب ومغادرته (بجاية) في ٧ حزيران (يونيو) واستبداله بحاكم جديد (هو دون انطونيو) فقد اضطلع هذا بعقد المعاهدة التي جاء نصها كالتالي:

بين الملك (فرناندو) ملك اسبانيا والصقليتين.

وبين مولاي عبد الرحمن ملك جبال البربر.

وبين مولاي عبد الله حفيده.

انعقدت المعاهدة على القواعد والأسس التالية:

أولاً: انعقد بهذه المعاهدة صلح دفاعي هجومي في سبيل مصلحة اسبانيا، وبين الملك عبد الرحمن والملك عبد الله. كما انعقد بينهما معاً من جهة، وبين الملك فرديناند من جهة أخرى حلف دائم المفعول.

ثانياً: يستمر مولاي عبد الرحمن ملكاً على جبال القبائل.

ثالثاً: يعترف عبد الرحمن علناً بامتلاك اسبانيا لمدينة بجاية وصخرة الجزائر وتادلس وكل المراسي التي على البحر وما يتبعها. ولم يأت هنا ذكر مدن الناحية الغربية لأنها داخلة ضمن نطاق التعاقد مع بني زيان في تلمسان.

رابعاً: إرجاع كامل الأسرى المسيحيين الى الاسبان دون أدنى مقايضة.

خامساً: العمل على اصلاح كل القلاع والمعاقل الموجودة في المملكة.

سادساً: يبعث الملك عبد الرحمن بولده محمد رهينة عند الاسبان، كما يبعث الملك عبد الله بولده البكر[1] رهينة أيضاً. وذلك لضمان تنفيذ المعاهدة.

سابعاً: يتعهد العرب بتزويد مدينة بجاية الاسبانية سنوياً بالمواد والمقادير الآتية:

٣٦٠٠ فنيق من القمح[2]

١٠٠ فنيق من الشعير.

٥٠ فنيق من الفول.

١٠٠٠ رأس من الغنم.

٥٠ بقرة.

١٠٠٠ حمل من الحطب.

فأما أحمال الحطب فتسلم مجاناً لحامية بجاية. وأما بقية المواد، فان الموردين يتقاضون ثمنها[3].

---

(١) سلم الملك عبد الله ابنه البكر الى الاسبان ـ وهو صغير السن ـ فسلمه هؤلاء للرهبان كي يتولوا تعليمه وتثقيفه وتعميده، فنشأ وشب وهو لا يعرف غير النصرانية ديناً. واطلقوا عليه اسم (فيرناندو) ومنحه ملك اسبانيا لقب (الطفل ـ انفانت) ومات مسيحياً في اسبانيا.

(٢) الفنيق يعادل (٣٦,٥٠) كيلو غرام.

(٣) المرجع: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا ـ احمد توفيق المدني ـ ص ١٣١ـ ١٣٥

- ٢ -

في أدب الحرب

(الشعر في الحض على القتال والجهاد)

عندما سقطت وهران تحت حكم الصليبيين (الاسبان)، وترك أهلها المسلمون تحت سيطرة (اليهودي ابن اليهودية- أشطورا) انطلق العالم أحمد بن القاضي شيخ (عبد الله بن علي المساوري) و (شيخ العلامة سعيد قدورة الجزائري) بقصيدة يستنهض فيها الهمم ويحض قومه على القتال. ومنها:

فـمـن مـبـلـغ عـني قـبـائـل عـامـر
ولا سـيـمـا ممـن ثـوى تحـت كـافـر

وكـل كَـمَـي مـن صـنـاديـد راشـد
بتيـجـانهم، مـع رأسـهـا عـبـد قـادر

وجـيـرانهم في الغـرب من كل ماجد
طـويـل القنـا أهـل الـوفـا والمغـافـر

وطـلـحـة والأحـلاف في غـرب هـبـرة
وشيـخ سـويـد بـل وكـل مفـاخـر

وشيخ بني يعقوب الحامي الحمى
بكل قبيل مولع بالعساكر
ويا معشر الاسلام في كل موطن
وفي كل ناد سالف ومعاصر
ويا معشر الأتراك، يا كل عالم
وكل ولي حافظ للأوامر
ويا سادة العربان من آل هاشم
وغيرهم بالله ما صبر صابر؟
أناشدكم بالله ما عذر جمعكم
لدى الله في (وهران) ذات الخنازر
أذلكم الجبار! كيف رضيتمو
بسبي العذارى من بنات الأكابر
فصرتم من جور البغات كأنكم
يهود الجزا، تعطونها بالأصاغر
فلا همة تعلو بكم عن دنية
ولا غيرة تدعوكمو للمآثر
ولا ذمة ترعونها في نبيكم
ولا حرمة تحمونها بالبواتر
عليكم لحاف الذل! أين نحولكم
أما أبصروا في السبي خير الحرائر؟
وتحت اليهودي غادة عربية
يعاليها الخنزير فوق المزابر
وما منكم إلا خصي أذلَّه
بميسمه النصراني يا آل عامر

أضيـــم مـــلوك،أم تـــغـــلب ظــالم
عـليكـم رمــاكـم في جــوار الــكــوافــر

حرب الثلاثمائة عام ـ احمد توفيق المدنـي
ص ١١٧ـ ١١٨



البطل العظيم عروج
(متحف البحرية العثمانية باستامبول).

- ٣ -

عروج في الخالدين

٨٧٣ - ٩٢٤ هـ = ١٤٦٨ - ١٥١٨ م

عاش عروج مجاهداً في سبيل الله منذ نعومة أظفاره - في العاشرة من عمره - وحتى يوم استشهاده (ببني سناسن) وعمره لا يتجاوز الخمسين عاماً - ويقال أربعة وأربعون -.

ولقد أثارت حياته بقدر ما أثار استشهاده نوعاً من الاثارة التي لا يمكن وصفها، وحتى اسمه بقي موضع جدل كبير، فلقد أريد - عن جهل أو عن عمد - الاساءة لهذا المجاهد العظيم، وأمكن بالاعتماد على الوثائق اجراء تصحيح اسمه فجاء كالتالي: [1].

«الاسم الحقيقي لهذا البطل الاسلامي العظيم، مؤسس دولة الجزائر، انما هو (عروج - بضم العين وضم الراء) وهي عربية صميمة معناها الارتفاع والصعود، ودخلت التركية عن طريق ذكرى حادث عظيم في حياة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، هو حادث (الاسراء والاعراج)».

---

(١) حرب الثلاثمائة سنة - احمد توفيق المدني - ص ١٥٩ - ١٦١ و ١٩٢ - ١٩٥.

ولا ريب في أن البطل قد ولد في ليلة المعراج، فدعاه أبوه (عروج) تيمناً بذلك الحادث العظيم، كما يطلق الأتراك كثيراً على مواليدهم الذين يولدون خلال تلك الأشهر الحرم أسماء (رجب وشعبان ورمضان ومحرم). ومعروف أن الأتراك لا ينطقون حرف العين، بل يقلبونها ألفاً يندمج مع ما بعده. فمدينتا (عشاق وعين أونـي) مثلاً وهما في بلادهم تلفظان حسب نطقهم (أوشك وأين أونـي) وكلمة (عروج) ينطقون بها (أوروج). وهذا هو الاسم الذي اشتهر به بطلنا شرقاً وغرباً. وقبل أن يرجع الجزائريون هذا الاسم الى أصله العربـي، ويعيدون له (عينه) نطقاً، كانوا في مستهل الفتح يكتبونه على الطريقة التركية (أوروج) ويدل على ذلك أثران قديمان، لا يزالان موجودين الى اليوم: أحدهما الرخامة المنقوشة والتي كانت موضوعة على باب حصن شرشال. وثانيهما: الرخامة المنقوشة التي كانت على باب مسجد الشواش بالعاصمة الجزائرية. فرخامة شرشال قد نقش عليها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وآله. هذا برج شرشال أنشأه القائد محمود بن فارس التركي، في خلافة الأمير القائم بأمر الله، المجاهد في سبيل الله، أوروج بن يعقوب، بإذنه، بتاريخ أربع وعشرين بعد تسعمائة».

أما رخامة مسجد الشواش الذي هدمه الافرنسيون، والذي كان على مقربة من ساحة الشهداء في الجزائر فهي تحمل اسم:

أوروج بن أبـي يوسف يعقوب التركي

ويظهر من ذلك أن والد البطلين المنقذين كان تركياً صميمياً،

خلافاً لما يدعيه كثير من مؤرخي الافرنج ويمكن أن يضاف الى ذلك، لتصحيح هذا النسب وإضفاء نور جديد عليه، هذه الرخامة الموجودة بمتحف مدينة الجزائر، والتي كانت موضوعة فوق باب المسجد الذي أمر ببنائه في الحضرة الجزائرية السلطان خير الدين وهذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

«في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال» أمر ببناء هذا المسجد المبارك السلطان المجاهد في سبيل رب العالمين مولانا خير الدين بن الأمير الشهير المجاهد أبي يوسف يعقوب التركي. بلغه الله سؤله، وأعانه على جهاد عدو الله ورسوله. بتاريخ أوايل جمادى الأولى من عام ستة وعشرين وتسعمائة» أي نيسان- أبريل- سنة ١٥٢٠م.

ولقد سقط (عروج) فوق ثرى الجزائر الطهور، ولم يصدق الأعداء حصولهم على مثل هذا النصر، فما كان من الاسبانيين إلا أن احتزوا رأس (عروج). وساروا به توأ نحو وهران، ومن هنالك سير بها الى اسبانيا، حيث طيف بها على أكبر مدنهم، وذهبوا بها بعد ذلك أوروبا، حيث طيف بها كذلك خلال أغلب المدن الأوروبية التي كانت فرائصها ترتعد من مجرد ذكر اسم (بربروس) أما ثيابه المزركشة التي تركها في تلمسان، فقد أخذت الى اسبانيا، وطيف بها أيضاً أغلب المدن قبل إيداعها في معتكف (سان جيروم) القرطبي. ويذكر أن جثمانه حمل الى العاصمة (الجزائر) حيث دفن بجوار ضريح (سيدي رمضان). وقبره عن يمين الداخل متصلاً بجدار المسجد.

ومضى الشهيد المجاهد الى (جنة الخلد) تاركاً للدنيا ذكراً

خالداً، قيل فيما ذكر عنه:

«كان للشقيقين ـ عروج وخير الدين ـ من الإقدام والجرأة، مقداراً يفوق المتعارف عند الرجال، وكان لهما من الدهاء السياسي الخارق للعادة، ما يجعل الناس مشدوهين من وجود مثله عند رجلين لم تؤهلهما ثقافتهما البدائية ليقوما بهذا الدور العظيم، دور قيادة الشعوب.

وهكذا كانت الخاتمة البطولية لهذا القرصان المغامر الذي لا نتمالك أنفسنا عن الاعجاب باقدامه وبجرأته النادرة، كما نعجب أيما اعجاب بهذه العبقرية التي سادت أعماله في ميدان الحرب، وفي ميدان تنظيم الدولة. كما أننا نستنكر الى جانب اعجابنا هذا كل الاستنكار، ما كان متصفاً به من مصانعة ومن قسوة فظيعة».

تلك كانت كلمات المؤرخ بيشو في كتابه ـ تاريخ شمال أفريقيا. ولكن لا بد من التوقف قليلاً عند عبارته الأخيرة التي وصف بها (عروج) بالقسوة الفظيعة، فهل كانت (قسوة الاسبانيين) أقل فظاعة وهم يجتاحون (وهران)؟ أم هل كانت قسوة (شارلكان) في تونس أقل (قسوة ووحشية؟) وهل كان بالمستطاع مجابهة تلك الوحشية ـ بإنسانية ـ؟ المهم أن أقنعة الانسانية هي أقنعة غريبة الالوان، غريبة الأشكال، وفقاً للوجوه التي تضعها. والمهم في الأمر متابعة ما قاله المؤرخ ـ دي قرامون ـ في كتابه (تاريخ الجزائر تحت حكم الأتراك) حيث ذكر ما يلي:

«لا يرى كثير من المؤرخين في ـ عروج ـ أكثر من زعيم عصابة ـ لا غير ـ. وإنني لا أعرف حكماً جائراً مخالفاً للحقيقة كمثل هذا الحكم. فان البربروس الأول ـ عروج ـ ما كان إلا جندياً من جنود

الاسلام المغاوير، جاهد فوق متن البحار جهاداً لا هوادة فيه، ضد أعداء ملكه، وضد أعداء دينه. على أنه كان ملتزماً خلال جهاده هذا، بكل القواعد والأسس التي كان العمل جارياً بها خلال تلك الحقبة من التاريخ، فلم يكن أبداً، أكثر قسوة ولا أقل قسوة، من الأعداء الذين كان يمعن في محاربتهم، وعندما سنحت له الفرصة، وأمكنته غزواته من جمع قوة كافية حوله، تمكنه من القيام بجلائل الأعمال، حاول إنشاء امبراطورية في الشمال الأفريقي، حيث كانت الفوضى ضاربة أطنابها. أما الوسيلة الوحيدة التي كانت تمكنه من إدراك تلك الغاية وتضمن له البقاء والاستمرار، انما هي إبعاد المسيحيين عن البقاع التي يحتلونها في البلاد. ومن أجل تحقيق هذا الهدف أخذ يحارب المسيحيين قبل كل شيء، في شخص حلفائهم والخاضعين لهم، حتى يقطع عن النصارى كل طريق يتزودون منه، ويضطرهم بذلك الى الاعتماد خاصة على ما يرد عليهم من اسبانيا. ولقد كانت بداية أمره سعيدة. وكان انتصابه بالجهات الغربية، يسمح له بالتقاء المهاجرين الاسبانيين الى البحر لولا أنه قتل بسبب خديعة حلفائه. ولقد مات، مأسوفاً عليه كل الأسف من قبل جميع الذين انضووا تحت رايته وعملوا تحت لوائه».

أما المؤرخ الكبير (شارل اندري جوليان) فيقول في مؤلفه (تاريخ الشمالي الأفريقي):

«وهكذا انتهت في سن الرابعة والاربعين، هذه الحياة المجيدة في ميدان المغامرة، انه هو الرجل الذي أنشأ القوة العظيمة لمدينة الجزائر وللبلاد البربرية- انه بنظرة صادقة لا تخطىء، وهي نظرته المعتادة، قد أدرك مدى ما تستطيع أقلية عاملة تحقيقه في وسط مليء

بالمنافسات بين مختلف الامارات المغربية، لكي يؤسس على حساب تلك الامارات، دولة إسلامية قوية، لا تستطيع أن تنالها بسوء هجمات النصارى.

وعلى هذه الصفة، تمكن من بسط سلطانه على جهات متيجة (أو متوجة- بضم الميم وفتح التاء والواو والجيم) ووادي شلف وتيطري والظهرة والونشريس ثم تلمسان، ونسف مملكة بني زيان نسفاً لم تقم لها من بعده قائمة، إنما كانت مآثرته هذه تتلاشى وتضمحل، لو لم يتلقفها ويحتضنها باليمين، شقيقه خير الدين، الذي سار بها في طريق النجاح والكمال».

تلك هي كلمات قليلة لا يمكن لها أبداً أن تفي المجاهد الشهيد بعض حقه، لقد كان من أول مآثره إبراز أهمية الجهاد في البحر. وكان من ثاني مآثره إعداد أخيه (خير الدين) لمتابعة دوره. وكان من ثالث مآثره انصرافه الكلي لاقامة الجزائر وتنظيمها بالتعاون مع شعبها وبإرادته ودعمه وتأييده، وكان في ذلك انتصاره الكبير الذي مهد لهذا الوطن العربي المسلم سبيل بناء المستقبل، وضمن له القدرة لمقاومة الحملات الصليبية طوال خمسمائة عام تقريباً (من الاستعمار الاسباني ثم الاستعمار الافرنسي).

ولقد كان عدد المجاهدين من الأتراك العثمانيين قليلاً، وهنا يبرز الدور العظيم الذي اضطلع به الشعب الجزائري العربي المسلم عبر تاريخه الطويل، وما قدمه من تضحيات، وما تحمله من نوائب. وبقي ذكر (عروج) خالداً في طليعة الشهداء الخالدين. ومضت قوافل الشهداء فكانت تضحياتها بحق هي المنارات التي أضاءت لها دنيا الجزائر (المحروسة الخالدة).

ـ ٤ ـ

معاهدة ملك تلمسان
مع الامبراطورية الاسبانية

خاض ملك تلمسان (محمد السابع) حرباً ضد أخيه عبد الله الذي كان يدعمه جده لأمه (عبد الرحمن بن رضوان). وكان الاسبان يقفون من وراء الطرفين المتصارعين، فكتب (محمد ـ تلمسان) رسالة الى الحاكم الاسباني، عرض فيها إقامة تحالف فيما بينهما. وكان نص الرسالة والمعاهدة المقترحة كالتالي:

تلمسان ٥ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٥٣٥

«تعلمون جلالتكم انني كاتبتكم مراراً قبل هذا، التمس منكم قبولي ضمن حلفائكم وخدامكم، وانني لم أتلق منكم أي جواب، والله يعلم شدة رغبتي في أن أكون من أصدقاء جلالتكم. وفي هذه الأثناء حاربني بن رضوان، وجاء يهاجمني ومعه جماعة من المسيحيين، فكنت مضطراً للدفاع عن نفسي، ولقد كلفني هذا كثيراً، لكن لم أكن استطيع غير ذلك، ولا أعتقد أن جلالتكم تعتب علي اذا أنا دافعت عن مملكتي وعن نفسي. وإني أرسل لجلالتكم معاهدة أمضيتها بنفسي وختمتها بخاتمي والتمس من جلالتكم المصادقة عليها.

(خلاصة المعاهدة)

١ـ أن يعترف بي الامبراطور صديقاً حليفاً، ولا ينصر علي عدواً.

٢ـ أتعهد بأن أدفع أربعة آلاف (دوبلاس) سنوياً، وفي نفس الآجال التي تعهد بها والدي من قبلي، على شريطة أن مداخيل باب تلمسان تكون لي كما كانت لوالدي.

٣ـ إذا زادت مداخيل باب تلمسان عن الأربعة آلاف (دوبلاس) فإن الزيادة منها تكون خاصة لي.

٤ـ أتعهد مقابل ذلك بأن أرجع للكونت دي الكوديت السبعين أسيراً مسيحياً الذين هم الآن بتلمسان، ويوجد بينهم خمسة أسرى عند عائلات تلمسانية، لها خمسة أسرى بوهران فالرجاء الأمر بالمبادلة.

٥ـ لا يقبل في مدينة وهران ابن رضوان ولا حفيده، ولا أحد من رجاله، فان دخلوا وهران فرجائي الى جلالتكم أن يبقوا بها أسرى.

٦ـ اذا ما فتح جلالة الامبراطور مدن الجزائر وشرشال وتنس، فله أن يبقي تحت سلطاته المدن المذكورة وغيرها من المراسي التي يود جلالته الاحتفاظ بها، أما داخلية البلاد المذكورة فيجب أن ترجع لي، لانها كانت من ممتلكات آبائي وأجدادي.

٧ـ يكون هذا الصلح لمدة عشرة أعوام.

لم يقبل الكونت (دي الكوديت) بهذا النص، فأرسل للملك محمد مشروعا اسبانياً، استثمر فيه فزع الملك محمد ورعبه، وهذه خلاصة المعاهدة الجديدة التي فرضها الاسبان:

١ـ أنا محمد ملك تلمسان : اتعهد والتزم بمحض اختياري ، بأن أكون الصديق والحليف والتابع لجلالة الامبراطور اذا ما رضي أن يشملني بحمايته وألتزم بتنفيذ الشروط الآتية :

٢ـ أكون صديقاً لمن يصادق جلالته ، وعدواً لمن يعاديه ، ولا أسمح مطلقاً لاعدائه عرباً أو مسيحيين باجتياز مملكتي .

٣ـ اذا جاء جلالة الاميراطور بنفسه الى مملكة تلمسان لمحاربة بقية الملوك في البلاد . فأنا التزم السير معه واضعاً تحت تصرفه كل القوى التي لدي .

٤ـ ومقابل ذلك يتعهد صاحب الجلالة بإعانتي ضد من يحاربني أو يريد بي سوءاً وذلك بواسطة الجيوش التي لجلالته بمراكز الحدود .

٥ـ واذا جاء جلالته لمملكة تلمسان بنفسه ، أو أرسل جيشاً لقتال أعدائه ، فأنا أتعهد بأن أمده بالأقوات وحيوانات الجر بأرخص الأثمان .

٦ـ أتعهد بأن أعيد لوهران في مدة ثمانية أيام ، كل الأسرى المسيحيين الموجودين بتلمسان ، وهم على أحسن حال من الصحة والسلامة .

٧ـ لا أقبل في بلادي ، لا بربروس ولا أي أحد من قراصنة الأتراك ، واذا حل بربروس أو جماعته ببلادي ، فأنا أبذل جهدي لأسرهم وتسليمهم لحاكم وهران .

٨ـ أمنع العرب وزناته في مملكتي من الحاق أي ضرر بمدينتي وهران والمرسى الكبير أو سكانهما من العرب واليهود وكذلك عرب الجبال ـ الخاضعين لاسبانيا ـ .

٩ـ أعطي أوامري لكي تمرّ كل تجارة تلمسان بمدينة وهران دون غيرها من المراسي ، إلا اذا سمح الامبراطور بذلك .

١٠ـ يسمح لي جلالة الامبراطور بأن أضع في وهران عدداً من المتصرفين لكي يتولوا قبض المكوس الراجعة لي من هذه التجارة، يستثنى من ذلك ما يرد لتموين مدينة وهران، ما عدا التمور التي هي بضاعة.

١١ـ يستطيع العرب واليهود من سكان مدينة تلمسان ومملكتها القدوم الى وهران وغيرها من ممتلكات جلالة الامبراطور ويستطيعون سكناها بصفة مسالمة دون أي اعتراض شريطة احرازهم على اذن بذلك من حاكم وهران. ولسكان وهران والمرسى الكبير مثل هذا الحق في سكنى تلمسان ومدن مملكتها، على شرط إحراز الإذن مني.

١٢ـ لا يمكن إجبار أحد رعايا مملكتي، عرباً أو يهوداً، على اعتناق الدين المسيحي، ويسمح لهم بأن يعيشوا أحراراً حسب قوانينهم، وأن تحترم ديارهم وممتلكاتهم، وأن يباشروا أعمالهم التجارية مع كل ممالك ورعايا جلالة الامبراطور.

١٣ـ مدة هذه المعاهدة خمسة أعوام ابتداء من يوم إعلانها.

١٤ـ التزم بأن أدفع لجلالة الامبراطور الذي اعترف بتبعيتي له، مقدار أربعة الاف (دوبلس) كل سنة من الذهب الصافي معيار ١٧ قيراطاً وموزونة وزناً دقيقاً.

١٥ـ يضع الامبراطور تحت تصرفي، عند الحاجة، وكما فعل مع والدي، خمسمائة رجل لمشاركتي في الدفاع، وأتعهد بأن أدفع مرتباتهم منذ اليوم الذي يغادرون فيه مملكة قشتالة.

١٦ـ يحدث كثيراً أن يصل الى وهران تجار من العرب واليهود من تلمسان لشراء بضاعة، ويعطون بدلها رقاعاً تدفع عند رجوعهم الى وهران. لكنهم لا يعودون ولا يدفعون، فأنا التزم بدفع قيمة

تلك الرقاع ويجب ارغام كل عربي أو يهودي من سكان وهران على تسديد دينه لتجار تلمسان.

١٧ـ اذا حل ابن رضوان، او حفيده مولاي عبد الله بوهران، فإن حاكم وهران يبقيهم بها، لا يخرجون منها طوال مدة الصلح.

١٨ـ ساعلن عن هذه المعاهدة في كل مملكتي للجميع. ولأعدائي الذين ثاروا ضدي وانضموا الى أخي مولاي عبد الله وجده ابن رضوان. فمن قبلها وأطاعها فهو مني ويدخل في خدمتي. ومن عصاها وخالفها فهو عدو لا يجب أن يقبل في مدينة وهران.

١٩ـ هذه المعاهدة وقعتها بنفسي وختمتها بخاتمي ووضعت عليها طابع الدولة».

ـ ٥ ـ

رسالة السلطان سليمان

القانوني الى ملك فرنسا

كتب ملك فرنسا (فرانسوا الأول) رسالة الى السلطان سليمان القانوني، يطلب التحالف معه ضد امبراطور اسبانيا والغرب (شارلكان) وأجاب السلطان سليمان بالرسالة التالية:

الله العلي المعطي المعين

بعناية حضرة عزة الله جلت قدرته، وعلت كلمته، وبمعجزات سيد زمرة الأنبياء، وقدوة فرقة الاصفياء، محمد المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم الكثيرة البركات. وبمؤازرة قدس أرواح حماية الأربعة، أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وجميع أولياء الله.

أنا سلطان السلاطين، وبرهان الخواقين، متوج الملوك، ظل الله في الأرضين، سلطان البحر الأبيض والبحر الأسود والأناضول والرميلي وقرمان الروم وولاية ذمي القدرية وديار بكر وكردستان وأذربيجان والعجم والشام وحلب ومصر ومكة والمدينة والقدس

وجميع ديار العرب واليمن وممالك كثيرة أيضاً التي فتحها آبائي الكرام وأجدادي العظام بقوتهم القاهرة أنار الله براهينهم، وبلاد أخرى كثيرة افتتحتها يد جلالتي بسيف الظفر، أنا السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان.

الى فرنسيس ملك ولاية فرنسا.

وصل الى أعتاب ملجأ السلاطين المكتوب الذي أرسلتموه مع تابعكم (فرانقيان) النشيط، مع بعض الأخبار التي أوصيتموه بها شفاهياً، وأعلمتنا أن عدوكم استولى على بلادكم، وأنكم الآن محبوسون، وتستدعون من هذا الجانب مدد العناية بخصوص خلاصكم. وكل ما قلتموه وعرض على أعتاب سرير سدتنا الملكية، وأحاط به علمي الشريف على وجه التفصيل فصار معلوماً. فلا عجب من حبس الملوك وضيقهم. وكن منشرح الصدر ولا تكن مشغول الخاطر، فإن آبائي الكرام واجدادي العظام نور الله مراقدهم لم يكونوا خالين من الحرب لأجل فتح البلاد ورد العدو، ونحن أيضاً سالكون على طريقتهم وفي كل وقت نفتح البلاد الصعبة والقلاع الحصينة، وخيولنا ليلاً ونهاراً مسروجة وسيوفنا مسلولة. فالحق سبحانه وتعالى ييسر الخير بإرادته ومشيئته. وأما باقي الأحوال والأخبار، فستفهمونها من تابعكم المذكور فليكن معلومكم هذا.

تحريراً في أوائل شهر آخر الربيعين، سنة اثنين وثلاثين وتسعمائة (١٥٢٥م).

بمقام دار السلطنة العلية
القسطنطينية المحروسة المحمية

- ٦ -

شارلكان - وبربروس

كان فشل شارلكان (شارل الخامس) في حملته على الجزائر، ذا أثر عميق لا على الامبراطورية الاسبانية، وعلى ملكها شارلكان، وإنما على مستوى الاحداث العالمية. وقد حفظ الشعر العربي هذا الحدث الذي قيل فيه

سلوا شرلكان كم رأى من جنودنا
فليس له إلاّ الهمُّ من زواجر
فجهز أسطولاً وجيشاً عرمرما
ولكنه قد آب أوبة خاسر

ونزلت أنباء الهزيمة نزول الصاعقة على أوروبا، وتطورت الأحداث هنالك بسرعة. فلم يبق حليف للامبراطور سوى هنري الثالث ملك إنكلترا، وانضم الى ملك فرنسا الدوق (دي كليف) وملك الدانمارك وملك اسكندينافيا. وكان فرح الافرنسيين يكاد يساوي فرح الجزائريين لأن سقوط الجزائر كان يؤدي لا محالة الى سقوط فرنسا. وبادر ملكها فرنسوا الأول لابرام معاهدات مع السلطان العثماني. وكان لهذه الغارة أيضاً نتائج معنوية داخل القطر

وخارجه. وفي الجزائر اقيمت الافراح وتواصلت الاحتفالات بمناسبة هذ النصر المبين الذي كتبه الله للمرة الثالثة في ظرف ثلاثين سنة. وكان يهود العاصمة أكثر الناس اغتباطاً وفرحاً، لما كانوا يضمرونه من حقد وعداوة للاسبان الذين أذاقوهم كل انواع العذاب والاضطهاد يوم كانوا بأوروبا. وقد وجد اليهود هنا الأمن والاستقرار والمجال لممارسة نشاطهم مما جعلهم يخافون انتصار الاسبان على الجزائر. وبمجرد انسحاب شارل الخامس اطمأنت قلوبهم وصاروا يصومون اليوم الثالث من شهر ششوان، ويحتفلون في الرابع منه - ببورم الأول - (١٠٨) وكانوا ينشدون القصائد من نظم ربانـي العاصمة (مثل مَشيش) و(ابراهيم بن يعقوب تواه) و(ابراهيم بن سليمان صرفتي) وهي قصائد في تمجيد الانتصار الجزائري ومدح بطولة الجزائريين وهزيمتهم للاعداء كلما تجاسروا على غزو العاصمة. وبقي اليهود الى القرن التاسع عشر يحتفلون كل عام بذكرى (١٠٩)= ١٥٤١م.

وفي الخارج (بقي رعب المسلمين في قلوب أهل أوروبا لمدة طويلة). ولم يعد شارل الخامس قادراً على التفكير في حملة أخرى ضد الجزائر. وطغى شبح خير الدين وحسن آغا على العامة والخاصة حتى أصبح الناس إذا رأوا جفناً عن بعد نسبوه الى خير الدين، فيتصاعد الصراخ ويكثر العويل ويفر السكان من ديارهم ومن حقولهم ومتاجرهم. وإذا حطمت الزوابع مركباً توهم الناس ان خير الدين بربروسة هو الذي أثار البحر وهيجه وأغراه على اغراق سفنهم. وبلغ الخوف من قادة الجزائر اقصى درجة حتى أصبح أهل اسبانيا وإيطاليا إذا ما حدثت جريمة أو سرقة أو وقع فساد أو تخريب أو مرض أو وباء أو قحط قالوا خير الدين وأصحابه هم السبب في ذلك. وكانوا في عويلهم يرددون:

بربروشه بربروشه
أنت صاحب كل شر
ما كان من ألم أو عمل
مؤذ وجهنمي مدمر
إلا والسبب فيه
هذا القرصان الذي
لا نظير له في العالم[1].

(١) عن (مجلة تاريخ وحضارة المغرب) كلية الآداب في الجزائر- يوليو ١٩٦٩ العدد ٦ و ٧ غارة شارل الخامس- بالحميس مولاي ص ٣٤- ٥٥.

مراجع البحث الرئيسية

١- حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا (١٤٩٢- ١٧٩٢) أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع -الجزائر- (الطبعة الثانية)١٩٧٦.

٢- تاريخ الجزائر - الاستاذ مجاهد مسعود - الجزء الاول.

٣- مدينة الجزائر، نشأتها وتطورها قبل (١٨٣٠م) علي عبد القادر حليمي. استاذ الجغرافية بجامعة الجزائر. الطبعة الأولى - ١٩٧٢- م الجزائر.

٤- تاريخ الجزائر في القديم والحديث -مبارك بن محمد الميلي- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ١٣٦٩- هـ = ١٩٧٦م.

٥- تاريخ الشعوب الاسلامية -كارل بروكلمان- دار العلم للملايين- بيروت الطبعة السادسة (١٩٧٤) ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي.

- L'AFRIQUE DU NORD (1) JEAN DESPOIS PRESSES UNIVERSITAIRES DE FRANCE PARIS - 1964

فهرست الكتاب

الكتاب القادم

الجزائر والحملات الصليبية

صدر عن «دار النفائس» للمؤلف

آ- الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية.

ب- من «سلسلة مشاهير قادة الإسلام»:

١- عقبة بن نافع
٢- موسى بن نصير
٣- قتيبة بن مسلم الباهلي
٤- سعد بن أبي وقاص
٥- عمرو بن العاص
٦- أبو عبيدة بن الجراح
٧- خالد بن الوليد
٨- معاوية بن أبي سفيان
٩- صلاح الدين الأيوبي
١٠- المظفر قطز ومعركة عين جالوت
١١- الظاهر بيبرس ونهاية الحروب الصليبية القديمة
١٢- عبد الرحمن الداخل (صقر قريش)
١٣- عبد الرحمن الناصر لدين الله
١٤- الحاجب المنصور

دار النفائس ت ٣٠٢٥٣٨ ـ ص ب ١١٣٣٤٧ ـ بيروت